إنّا وجدناهُ صابرًا..

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : إنّا وجدناهُ صابرًا
التأليف : سارة العقاري
موضوع الكتاب : رواية
عدد الصفحات : 192 صفحة
عدد الملازم : 12 ملزمة
مقاس الكتاب : 20* 14
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :3203 /2024
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6697 - 928

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

مجموعة
قصصية

إنّا وجدناهُ صابرًا..

سارة العقاري

إهداء

يُحكى أن الإمام أبو داوود ﷺ كان يركب سفينة فسمع رجلًا يعطس على الشاطئ قائلًا بعدها الحمد لله، فاستأجر أبو داوود قاربًا بدرهمٍ ليوصله إلى العاطس ثم قال له -يرحمك الله-.. وعاد إلى السفينة مرة أخرى.

فسأله أصحابه متعجبين مما فعل، فقال لعل هذا العاطس مُجاب الدعوة!

فلما نام أهل السفينة سمعوا صوتًا يقول: "يا أهل السفينة، إنَّ أبا داوود اشترى الجنة من الله بدرهم!"

- إلى رجلٍ اشترى الجنة من الله بدرهم، إلى أبي داوود جَامِع حديث رسول الله أهدي هذا العمل.

إهداء

إلى سيدة أخبرتني باكية ذات مرة بأن طعم الصبر مُر، ولم تسعفني بديهتي حينها لأخبرها بـ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.. وهُنا يكمن لُبّ المسألة.

مُقدِّمة

ينام الناس وقلب الصابر لا ينام، يلتمس الفرج كل ليلة ويحاول داعيًا رغم استحالة الأسباب حوله، ويبكي راجيًا رغم تقطع كل السبل به، يتمنى لو اجتباه الله فيهدي خطاه ويشد أزره إلى أن يراه.

مقدمة قصيرة تعوذت فيها من قلب ميت، وروح مُنهكة وجسد يائس مُحبط، تعوذت فيها من إنسان يجبره قدره على الصبر لكن الرضا لا يعرف إليه سبيلًا، ومن قلب يحب الله لكنه ساخط على قدره.

ظننتُ يومًا أن الصبر سهل بلوغه، ظننت أن قلبي إن تحمل ما يكره فقد صبر، وإن تجشم الصعاب راضيًا فقد اصطبر حتى أوشكتُ على إنهاء هذا الكتاب الذي جاهدت أن أجعل كل من أشخاصه أبطالًا صابرين، كل واحد فيهم يصبر في معركة تختلف عن معارك أبطال غيره، حتى يوم السابع من أكتوبر يوم أن استيقظتُ لأكتشف أنَّ هناك معارك حقيقية ليست كمعارك أبطال الكتب والروايات، يخوضها أناس مثلنا ليسوا من صنع الخيال بل صُنِعوا على عين الله.

رأيت الصبر متجسدًا في قلوب الصغار فاستحييتُ من صبري، وقرأت قصصًا حقيقية يشيب لها الوليد فخجلت من كل قصص الخيال التي أكتبها، رأيت إيمان أطفالٍ كإيمان الرجال وقلوب رجال كقلوب أصحاب رسول الله، رأيت نساء يصبرن كصبر ماشطة ابنة فرعون، وأطفالًا مؤمنين كإيمان

غلام أصحاب الأخدود، فقررت أن أخصص فصلًا كاملًا في كتابي هذا لأبطال لم تطالهم يدَ الإعلام لأن العدو حرمهم حق إعلان المعاناة، ولأناس صبروا رغم أن مصابهم يستعصي على كل ألوان الصبر.

أطفال ونساء كتبوا لي لأنهم خشوا أن يرحلوا دون أن ينتبه لرحيلهم أحد، أو أن يُكتب عليهم البكاء في حياتهم كل لحظة لكن حين يرحلون لا يجدون من يبكي عليهم، أو أن يبادوا دفعة واحدة فتذهب أعمارهم هباء وكأنهم ما وجدوا هنا يومًا، فوعدتهم بأنني سأوثق قصصهم في كتاب لأن الكتب لا تفنى حتى وإن فنى كاتبها، ولا ترحل حتى وإن رحل أبطالها ذات يوم.

(1)

لم تكن حياتي صعبة في البداية كانت مثالية لأبعد حد، والدٌ طيب يعمل بروفسيرًا في الجامعة وأم مُضحية وعاقلة تخرجت من كلية التجارة لكنها فضلت أن تترك العمل في بداية الزواج لتوفر حياة مستقرة وهادئة لزوجها وأبنائها، وأخ يصغرني بثلاثة أعوام لكنه يحبني كما لم يحب أخ أخته من قبل.

حياة هادئة وبسيطة وحافلة بالإنجازات التي كان التوفيق الإلهي سببًا جوهريًا فيها، كلما ذهبت إلى مكان تصدرتُ القمة فيه إكرامًا لسيرة والدي، وكلما خُضتُ اختبارًا مدرسيًّا كنتُ الأولى بامتياز لأن الله أرسل لي والدة مُكافحة تُعينني على فهم دروسي فأنهيت الثانوية العامة بتقدير دراسي ساحق والتحقتُ بكلية الهندسة كما كنت أحلم دائمًا.

مُهندسة ديكور؛ حلم يراود مُخيلتي مذ كنت طفلة، أحبُ البيوت وأحب أن أصنع شيئًا دافئًا فيها فتتصالح على الفور أرواح من يسكنها، هنا شرفة مليئة بالنباتات وهنا إضاءة خافتة وغرفة مكتب، أما هُناك فنافذة تطل تمامًا على القمر ليلًا أو الشمس في الصباح، هُنا أيضًا مكتبة ومقعد يُصلح للقراءة والكتابة، وهناك مطبخ به أرجوحة طفل وتلفاز ومنضدة طعام.

أفكار كثيرة مُلهمة وتفوق دراسي غير مسبوق وتنسيق هائل للألوان والجدران والأمكنة، أهاتف صديقتي "ميساء" كل ليلة فتذكّرني بتلاوة المعوذات والإخلاص لأنني في نعمة عظيمة وكل ذي نعمة محسود، وأجلس

إلى جانب أمي كل مساء فتحدثني عن فلان الذي يرغب بالزواج مني وعن صديقتها فلانة التي تستحلف أمي أن تجعل لوحيدها نصيبًا فيّ.

عروض كثيرة للزواج فأخشى ألَّا أكمل دراستي الجامعية إن تزوجت قبل إنهاء الدراسة، وعروض عمل كثيرة للغاية فأمتنع عن معظمها لأن وقتي لا يتسع لها كلها، ومُزاح طيب مع "ريان" أخي وصديقي الذي أُحب ورفيق روحي الذي لا أطيق البعد عنه، فأهتف في داخلي ليعن الله كل وحيدٍ لا أخ له إذا انشغل عني سويعات لدراسة أو عمل، ثم حوارات هادئة ولطيفة مع عائلتي الجميلة فأذكر خلالها نصيحة ميساء "لا تنسِ الإخلاص والمعوذات!" فأتلوهم على عجل أو ربما تجاهلتُ التلاوة!

أصل سريعًا إلى عامي الأخير في الجامعة، لا أصدق أنني بعد أقل من عام سأتخرج منها وألتحق بشركة تليق بي ويناسبني التواجد فيها، تحدثني والدتي في مسألة الزواج مجددًا فلا أجد ما يمنع، خطبة لمدة عام حتى أنهي اختبارات السنة النهائية ثم أتزوج، ويحدثني والدي عن رغبته في التحاقي مجددًا بالجامعة الأمريكية لدراسة إدارة الأعمال لرعاية أعماله -المتشعبة في كل مكان- إلى جانب "ريان" فأعده بأنني سأتقدم لها فور تخرجي.

حفل خطبة بسيط يحضره فقط المقربون من العائلة بالإضافة إلى وجود "ميساء" صديقتي والتي غالبًا ما تقوم في حياتي مقام أخت، يُلبسني "فِراس" خاتم خطبتنا ويهمس في أذني بكلام لذيذ يشعرني وكأنني أحلق في السماء فلا أرى ما يحدث على الأرض، "فراس أبو العزم" أيضًا درس

الهندسة في الخارج لكنه لا يشتغل بها، فقط يرعى مصالح وشركات أبيه، رأيته أكثر من مرة في النادي خلال زيارتي له يوم الجمعة لكن لم أنتبه له أبدًا ولم أتصور مُسبقًا أنه قد يحل في حياتي محل الزوج والحبيب، الجميع يبارك حسن اختياري له وتوفيق الله لي.

أحكي له نظرتي المُسبقة عنه فنضحك كثيرًا، ونختار أسماء وألقابًا لأولادنا في المستقبل فنختلف ولا ينفضُّ هذا الاختلاف إلَّا بشجار لذيذ، يناديني أحيانًا بأم "رؤى" فلا أصدق بأنه قد منح صك الموافقة للاسم الذي أُحب!

نذهب لاقتناء ما يلزم لتجهيز البيت فيوافقني على كل شيء اخترته رغم علمي التام أنه غير راضٍ عنه، وأخطط ليوم زفافنا فيلقي بتخطيطي عرض الحائط لأنه يرغب بحفلٍ هادئ بسيط ورقيق مثلي على حد قوله، وأخيرًا نذهب إلى بيتنا المستقبلي لنضع اللمسات الأخيرة سويًّا فيصرخ "فراس" صراخًا لا مُبرر له!

أسأله ماذا هناك فلا يجيب، وأحاول تهدئته فيصد عني ويطلب مني الخروج من بيته، أهاتف والدته أسألها ماذا هناك فتأتي على الفور، الكل لا يفهم ماذا أصابه ولا ما الذي يجعله يصرخ ويعربد فور رؤيته لي، أغادر شقة الزوجية للمرة الأخيرة دون أن أعرف ما الذي أصابه وألَمَّ به، بعد أيام تزورنا والدته تقول كلامًا طويلًا عن القدر والنصيب فأفهم ما تقصد به، يرحل "فراس" إلى الأبد بعد أن يرسل لي جهاز عرسي الذي اقتنيته وأنا أظنني سأزف إليه بعد أيام.

أهاتف ميساء أبكي لها كما لم أبك من قبل، أسألها كيف تخلى فراس عني بهذه البساطة وهو الذي لطالما أخبرني بأنه لا يطيق البعد عني ثانية واحدة، وكيف سيشارك واحدة غيري أمر زواجه وأنا التي لا أقوى على تخيل رجل غيره في حياتي، وكيف تجاوزني وتخطى علاقتنا سويًّا بكل هذه القسوة ومن دون السبب، أشتكي لها الوحدة والفراغ والخذلان فتصبرني، وأحكي لها معاملة أخي الصارمة لي وهو الرحيم طوال عمره معي فتلتمس له العذر، وأخبرها عن تدهور صحة أبي فتقول إن الله رحيم.

أذهب إلى الجامعة لأحصل على شهادة تخرجي، بالتأكيد نجاح دراسي هائل كما العادة لكنني أُفاجأ برسوب ساحق لا أفهم كيف حدث! يُعيد مجلس الجامعة تصحيح أوراقي فأُفاجأ بإجابات لا أعرف كيف ومتى أجبتها ولولا أنني أعرف أسلوبي في الكتابة لأقسمت لهم أن هذه الأوراق لا تخصني.

أعود إلى منزلنا أزف الخبر الحزين لأبي فلا يُعلق وأسأل أمي ما الذي حدث كيف تحولت حياتي هكذا من النقيض إلى النقيض فلا ترد، أعود لغرفتي أهاتف كل شركة ديكور تسابقت للعمل معي قبل أيام فيعتذرون مني بلا مبرر، وأطلب من أخي أن يجلس بضع دقائق للحديث معي فيتهرب بعكس علاقتنا سابقًا، أهاتف ميساء أبكي لها كل شيء فتبكي لأجلي!

يمرضُ أبي فنبيع لأجل علاجه كل شيء البيوت والمزارع والأفدنة لكنه يموت في النهاية، وتخسر جل شركاته فيبيعها أخي واحدة تلو الأخرى،

خمس سنوات تمر على وفاة أبي ننحدر سريعًا إلى الهاوية لكن أمي ترحل قبل أن نرتطم بقاعها، أبكيها كما لم أبك أحدًا من قبل، رحلت أمي الطيبة في ظروف مأساوية لم نقدر فيها على توفير مال لإجراء جراحة عاجلة لها.

أجلس على فراشي أحتضن صورتها وأطلب منها أن تسامحني وأن تزورني في الأحلام لتحدثني لأنني منذ زواج ميساء لم أجد أحدًا أتحدث معه، يتزوج أخي هو الآخر، أعرف بيوم زواجه من الإنترنت، أعاتبه بجرح نازف لأنه لم يخبرني فلا يهتم بعتابي، أطلب منه أن يعرفني على زوجته فينظر لي بضيق ثم ينصرف.

أتكور على فراشي ليلًا أبكي كشخص اكتشف قدرته على البكاء للتو فقرر أن يبكي كل ما فاته من بكاء، أسأل الله أن يفرج عني الكرب فلا يجيب، وأحاول جاهدة أن ألتحق بأي عمل لأن أخي قد نسيني في زحمة مشاغله فأخشى أن أموت جوعًا فلا أُوَفق في الحصول على عمل، تطالبني صاحبة العقار بالإيجار المتأخر وإلَّا طردتني من الشقة، أقرر الذهاب لأخي، مَن لي غيره ومَن بإمكانه الشعور بي أكثر منه.

أقصد شقته فيفتح لي الباب طفل صغير أعرف للتو أنه ابنه، أُقَبل الولد قبلات حب حقيقية وأعاتب أخي للمرة الثانية لأنه أنجب دون أن يخبرني، أذكره بأبي وأمي وبيتنا القديم وأسأله باكية لِمَ كرهني وأنا أخته الوحيدة، ولِمَ ابتعد عني وأنا في أشد الحاجة لقربه فلا يهتَم لعتابي كعادته، يمنحني مبلغَ الإيجار المتأخر ثم يختفي لبضع دقائق يرد فيها على هاتفه.

أحتضن طفله مُجددًا وأخبره أنني عمته وأنني أحبه فيطلب مني الصغير ألَّا أرحل، لكن والده بعد دقائق يسألني الخروج من بيته ليعيدني إلى شقتي في طريقه إلى عمله، أعانق الولد عناقًا حارًا أبكي فيه لأنني كنتُ بحاجة ماسة لهذا العناق من أي أحد، فحتى ريان أخي بَخِلَ عليَّ به، يربت الطفل على كتفي قائلا: "لا تبكِ يا عمتو!" فأود ألَّا أخرجه من حضني أبدًا.

أشعر أنني بحاجة لزوج يعينني على تحمل أعباء الحياة التي لم أعد أصلح لمواجهتها وحدي فأسأل الله أن ييسر أمر زواجي لكنه لحكمة لم يستجب، أذكر فراس خطيبي السابق الذي أحببته كما لم أحبُ إنسانًا من قبل وألقي نظرة سريعة على جهازي مُحكم الغلق في الغرفة المجاورة فأذكر أيام كنتُ أذهب لاقتنائه مع أمي ﷺ!

أسأل الله أن ييسر لي عمل فلا أحتاج لأخي مرة أخرى وأن يهبني فتحًا وعلمًا فألتحق بدراستي مُجددًا لأكمل عامي الأخير.

أقف أمام المرآة أطيل النظر في ملامحي، أشعر للمرة الألف أنها جميلة جدًّا، إذن لماذا يرحل بلا عودة كل من يتقدم لخطبتي! ألتقطُ صورة لي وأرسلها لـميساء صديقتي وأسألها هل الفتاة التي في الصورة هي أنا فتؤكد الإجابة!

إيجار متأخر؛ فلا تكف صاحبة العقار عن إيذائي بشتى أنواع الكلام، وطعام لا أعرف كيف أوفره فأبيتُ جائعة معظم الأيام، وأحلام مُفزعة تطاردني كل ليلة فلا أهنأ بنوم أو يقظة أبدًا، وأوجاع تملأ جسدي لم يتوصل لأسبابها كل طبيب زرته فقررت أن أتأقلم مع الألم وأن أعقد هدنة معه.

بشق الأنفس أعثر على وظيفة لا تناسبني لكنني لضيق أمري أقبل بها، بائعة في متجر لعب أطفال، أذهب إليه عابسة كل يوم لكن ما يلبث صدري أن ينشرح كلما رأيتُ طفلًا يضحك لأنه أخيرًا عثر على لعبة لطالما تمنى العثور عليها، أرفع بصري للسماء وأتساءل يا رب، متى سيكون لي أنا الأخرى طفلًا؟ فأبصر شابًا جميلًا آتيًا من بعيد وابتسامة حلوة تزين وجهه وإلى جانبه طفلة صغيرة تشبهه تمامًا تتعثر في المشي حوله لتختار دمية تليق بها، أرفع عيني إلى الشاب فلا أكاد أحولهما عنه، إنه هو "فراس" فتاي الأول ورجل قلبي الوحيد.

يسألني عن ثمن اللعبة فأبكي دون سبب للبكاء سوى أنه لم يعرفني ولم ينتبه لي، أعتذر منه وأطلب من صديقتي بالمتجر أن تتكفل هي بالبيع له، أراقبه من بعيد لا شك أن هذه الصغيرة ابنته، ادعو الله أن يحفظها له وأن يرزقني زوجًا صالحًا أتذوق طعم الأمومة في بيته قبل أن يتعذر حلم الأمومة عليَّ.

ثلاثة وثلاثين عامًا وكثير من الألم والخذلان والأحداث الصعبة التي لم يهونها عليَّ أحد سوى اتصالات ميساء المتباعدة من حين لآخر، أقتني لعبة لـ ابن أخي وأقرر أن أعاود زيارته مرة أخرى، أعرف أن أخي لم يعد يحبني لكنني ما زلت أحبه ولا أعرف لي أخًا غيره!

أطرق باب شقته في وجل وترقب فيفتح لي الطفل ذاته ويندفع بين أحضاني مُردِدًا اسمي في سعادة بالغة، أشعر أنني بحاجة ألَّا أخرجه من بين

أحضاني أبدًا، أسأله عن أبيه فيجيب بالداخل لكن بعد دقائق تخبرني زوجته أنه رحل قبيل مجيئي بلحظات!

أمنح اللعبة للصغير وأقبله قبلةً أخيرة لأنني عزمت على عدم المجيء هُنا مرة ثانية، أكتب لأخي رسالة عتاب قصيرة أسأله ماذا رأى مني ليتنصل من رؤية أخته الوحيدة بهذا الشكل؟! فلا يرد كعادته وأكتب له عن حياتنا السابقة وأذكره بمغامرتنا معًا فلا يخبرني بأنه تذكر.

أذهب لقبر أبي وأمي أبكي حتى أكاد أن أتقيأ قلبي، أسألهما لِمَ تركاني ورحلا فلا يجيباني أبدًا، أخرج من القبور هائمة على وجهي فألمح فتاة صغيرة تجلس تحت المطر باكية هي الأخرى إلى جانب قبر، أسألها لِمَ تبكين يا صغيرتي فتجيبني رحل بابا وطردني عمي وأجلس هنا وحيدة منذ يومين، أسألها وأين ماما فتخبرني أنها ماتت لحظة ولادتها.. فينفطر قلبي لها.

أصطحب الصغيرة معي إلى شقتي الله قادر أن يرحمني لأنني رحمتها، أمنحها طعامًا فتلتهمه وكأنها جائعة منذ عام وأمنحها حمامًا دافئًا فتنام قبيل أن أنهي تمشيط شعرها، أضعها على فراش أمي ثم أعود لغرفتي أفترش سجادة الصلاة أردد كل ما أحفظ من القرآن وأسأل الله أن ينظر لي نظرة عطف واحدة وأن يلطف بي لأنني في أشد الحاجة للطفه، وأتوسل إليه لأنني لا أعرف أحدًا يجيب توسلي غيره.

أُحبكَ يا رب..

وأحبُ أقدارك لي حتى لو كنتُ أتوق لغيرها، وأمتنُّ لرحمتك بي حتى لو

حبستها عني، وأدرك جيدًا أن مَنعَكَ عني ما أرغب به إنما لحكمةٍ أجهلها، وإحالتك بيني وبين ما أحب إنما للطفٍ منك لا أدركُ سببه.

يا رب أصبرُ قدر طاقتي لكنني تعبت، وأبكي طويلًا لكنني والله راضية، وأعلمُ جيدًا أن كل سوء مررتُ به قد صقلني، وكل تجربة آذتني قد هيأتني لتجربةٍ أكبر منها.

يا رب أجاهد روحي على الصبر وأُعَوِّدُ قلبي على الرضا، وأقول لنفسي دائمًا أن هذه مجرد دنيا وستنقضي وما حُرِمتُ منه هنا ستعوضني أضعافه هناك، وما سلبته مني فلأنني بالأصل لم أكن أملكه، لكن يا رب ثمة إرهاقٌ في الروح ومشقةٌ في الطريق والحمل بات أثقل من كتفي المتصدعة، والحزن أكبر من روحي المتفائلة دائمًا فصبرني.

يا رب أدعوك لأنني لا أعرف طريقة أخرى أحدثك بها، وأطلب منك العفو لأنني تعبت هنا وأأمل أن أستريح هناك.. وأدعوك بكل خير تمنيته لخلقك أن تكتبه لي.. وأسألك من فضلك أن تجودَ به عليّ وأن تجعل حاجتي في يدك وحدك فأنا لا أثق إلَّا بك.. وأن تبكني فرحًا لأنك رب الخير ولا تأتي إلَّا به.

وبينما أسجد باكية على سجادة الصلاة أغفو بين يديه فأراني أجلس في مسجد رسول الله بين روضته ومقامه وألمحُ رجلًا جميلًا يتشح بالبياض يضع مصحفًا على حجره ويقرأ بصوت جميل قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ

﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 155 - 156] ويظل يرددها حتى أسمعها بصوت جلي فأقترب منه وأقول باكية:

- أنا والله من الصابرين.

فيقول: أعرف! وجئت أبشرك.

أكرر سؤالي أتعرفني؟!

فيقول بلى، أنا وأنت سنكون في الجنة كهاتين ثم يضم إصبعيه السبابة والوسطى إلى بعضهما.. فأعرف أنه يقصد بذلك الطفلة التي كفلتها، أسأله باكية في غير تصديق أنت رسول الله أنت رسول الله؟ فيبتسم!

أفيق من غفوتي أقسم عهدًا على نفسي ألَّا أتخلى عن الطفلة أبدًا، يرن هاتفي برقم لا أعرفه أقرر تجاهل المتصل إلَّا أنَّ إلحاحه يقلقني أجيبه على مضض فإذا بها ميساء تستعجلني في الذهاب إليها بمشفى تمليني عنوانه وتستحلفني ألَّا أنتظر الصباح فربما يأتي الصباح وهي بين عداد الموتى.

يخبرني زوجها أنهم اكتشفوا للتو ورمًا عظيمًا بإحدى رئتيها وأن بينها وبين الموت ساعات إن لم تكن لحظات، أسارع في الذهاب إلى صديقتي الوحيدة التي ظلت معي عندما رحل الجميع وآزرتني عندما خذلني كل مَن أعرف ودعمتني عندما كنت بحاجة ماسة إلى الدعم.

أصل إلى المشفى قبيل الفجر أحتضن صغارها الثلاثة، أطمئنهم أنَّ ماما إن شاء الله ستكون بخير، أخطو إلى داخل الغرفة العبقة برائحة الموت، يهمس لي الطبيب بأن أجاهد في رسم ابتسامة على وجهي المكفهر فأحاول

تلبية طلبه فيعاود تنبيهه لي بألَّا أجهدها أبدًا فأؤكد له ذلك، أقبّل جبهتها فتختلط قبلتي بدموعي، أحاول أن أقول شيئًا فتهرب الكلمات مني وتسألني هي عن حالي فأقول بخير.

فتعلق بأنني أبعد ما يكون عن الخير!

تخبرني أنها كانت تريد الاتصال بي منذ أيام ثلاثة لكن حالتها النفسية والصحية لم تكن تسمح، أخبرها أنني لن أتركها حتى تعود في عافية إلى بيتها وأطفالها، فتخبرني بأنها لن تعود إليه أبدًا وأنها أتت بي إلى هنا خصيصًا كي أسامحها فلا ترحل محملة بذنبي، فأبكي دون قصد وأسألها أي ذنب! لم يرفق أحدٌ بي كما رفقت بي أنتِ.

فتُخرج من تحت وسادتها ورقة ملفوفة بعناية تطلب مني أن أفتحها، بأصابع مرتجفة أفتح الورقة فأجد بداخلها صورة لي قد شُوهت بكلام غير مفهوم كُتب باللون الأحمر، وثُقبت في أكثر من موضع كل هذه المواضع كانت تؤلم جسدي منذ خمسة عشر عامًا، يدق قلبي في عنف أخبرها أنني لم أفهم رغم أنني قد فهمت!

أخرج من غرفة ميساء مصدومة وباكية يحتلني سؤال واحد، ما الذي قد يدفع إنسان لأن يسحر إنسانًا آخر! خمسة عشر عامًا عانيتُ فيهم كما لم يعاني أحد وهي تشاهد معاناتي بكل ثباتٍ وتشفٍ وشر! أسألها قبيل أن أخرج هل ارتكبت فعلًا قبيحًا معك يستحق أن تعاقبيني عليه كل هذا العقاب وتؤذيني لأجله كل هذا الأذى؟ فتخبرني أنها لم تجد في حياتها أطيب مني فأضحك في صدمة قائلة: لِذا كافئتيني بمثل هذه المكافأة!

لم أستطع أن أسامح ميساء، تذكرت "فراس" الذي انفصل عني قبيل زفافنا بأيام عرفت الآن أنها من فرقت بيني وبينه، وتذكرت عامي الأخير بالجامعة الذي لم يُكتب لي أن أنهيها حتى هذه اللحظة لأنها كانت تغار لتفوقي عليها، وكل عريس تقدم لخطبتي ثم رحل بلا عودة، عرفت أنها من فرقت بيني وبين أخي فعشت وحيدة مقهورة بلا سند رغم أن سندي ما زال على قيد الحياة.

آه يا ميساء، كل هذا الشر يصدر منكِ أنتِ!

كيف هُنت عليكِ يا صديقة العمر ويا رفيقة الروح؟

غادرت المشفى بلا عودة، ربما كنتُ أقدر على العفو لو كانت من آذتني واحدة أخرى غير ميساء!

اتجهت نحو شقتي أفكر في رؤيا رسول الله وبشارته لي بالأمس، أنظر إلى السماء بعينين نديتين، أشعر وكأنني أراها للمرة الأولى، وأخطو بخطواتٍ واسعة وكأن قدماي قد حُرِرت للتو، أذكر الطفلة الجميلة التي كفلتها بالأمس وأتذكر على الفور أنني لم أسألها عن اسمها حتى هذه اللحظة، يرتفع رنين هاتفي أنظر إلى المتصل فلا أكاد أصدق مَن يكون، أقرر عدم الرد عليه، عله كان اتصالاً خاطئًا ولا أحب أن أُخجل صاحبه، لكن الرنين يرتفع للمرة الثانية إنه "ريان" أخي، أردُ في ريبة وتوجس فيهتف الصوت الذي أحبُ بكلمة واحدة لكنها كانت أفضل ما سمعت على الإطلاق: "سامحيني".

من لي غيرك يا حبيبي، من غيرك يستحق أن أسامحه يا روح أختك!

أصلُ شقتي ركضًا على السلم وأنا أردد "قبلتُ البشرى يا رسول الله" فأعني على كفالة اليتيمة التي بالداخل، أعانقها عناقًا حميميًّا ولا أعرف سبب حبي لها وتعلقي بها إلى هذا الحد، أسألها هل تقبلين العيش معي فترد بأنها ترغب ألَّا تفارقني أبدًا أسألها عن اسمها فتجيب "رؤى" فيدق قلبي في عنف إنه ذات الاسم الذي رغبتُ بتسميته لابنتي المستقبلية فتشاجر معي فراس شجارًا مُفتعلًا أيام خطبتنا، أسألها ثانية بصوت مبحوح وما اسم بابا يا صغيرتي فتجيب: "فراس أبو العزم!"

(2)

"رَزَان"..

دعوني أخبركم من هي "رَزَان"، لكن أولًا امنحوني دقيقة واحدة من الوقت أخبركم فيها مَن أنا..

فتى غني وسيم للغاية، مُدلل، سليل عائلة عريقة جدًّا، لم يعرف من الحياة سوى كل حلو فيها ويتعامل مع جميع مَن حوله كما لو أنه جاء من كوكب وهم جاءوا من كوكب آخر أحط درجة منه.

أدرسُ الحقوق كما كل رجال عائلتي فلا يليق بنا سوى أن نكون في علية القوم ورموز الدولة من قضاة ومستشارين ووكلاء نيابة.

في عامي الأول بكلية الحقوق لفتت انتباهي "رزان".. وكان هذا أسوأ ما حدث لي، دعني أوصفها لك كما لو أنك تراها، فتاة شديدة بياض الوجه تتخلله حمرة بسيطة، صاحبة أنف دقيق، وفم قرمزي وأهداب كثيفة طويلة، واسعة العينين كما لو أنها خرجت للتو من فيلم كارتون، شديدة صفاءهما فباتت عيناها الزرقاوان أجمل ما يمكن أن يراه إنسان ما.

انتظر لا تتعجل في رسم صورة ملائكية لها فيؤسفني أن أخبرك حانقًا أنها لم تكن كذلك، هذه اللوحة البديعة وهذا الوجه الملائكي عبثت به حادثة ما فتركت تشوهًا أسود عظيمًا يخفي جزءًا كبيرًا من جبهة "رزان" وجزءًا آخر ضئيلًا من عينها ووجنتها اليمنى.

كنتُ كلما نظرت إليها من الناحية اليسرى شعرت أنني أشاهد حورية نزلت للتو من الجنة، لكنها ما تلبث أن تتحرك فيظهر وجهها كاملًا بجزئه الأيمن المُحترق فأتخيلها ساحرة شريرة مهمتها بث الرعب في قلبي الذي اعتاد أن يَرى كل شيء في الحياة لطيف.

بعد أيام قلائل من عامي الأول بالجامعة نجحتُ في أن أصبح شيئًا مِحوريًّا فيها، الجميع يلتف حولي ويتمنى رضائي من أساتذة ومستشارين وطلاب إلَّا فتاة واحدة، ولم تكن هذه الفتاة سوى "رزان محمود غانم" جِنية الجامعة المُشوهة كما أطلقتُ عليها بعد ذلك.

بعد مُدة تناسيت أمرهَا وسيرتها المزعجة فلم يكن بيننا احتكاك أبدًا حتى ذلك اليوم الذي التقيت فيه بفتاة غاية في الحسن تشبه رزان جدًّا وإن كانت أقل منها جمالًا إلَّا أنها لا تحمل تشوهات في وجهها، بعد سؤال مُقتضب عنها عرفت أنها ورزان بنات أعمام، ومع ذلك فلا تعامل بينهما أبدًا!

واستجابة لفضولي سألتُ الفتاة عن سبب القطيعة بينهما فما كان منها إلَّا أن أخبرتني أن بين العائلتين قطيعة عظيمة جدًّا سببها أن رزان تغار منها دائمًا لدرجة أنها حاولت إحراق وجهها ذات يوم!

فكرهتُ رزان كرها على كره، قبيحة ووحيدة وشريرة أيضًا تهوى إحراق الوجوه..!

ودون أن أرغب كانت رزان بوجهها المشوه وحكايات كثيرة عن حقدها وشَرِها محور حديث الرفاق في الجامعة، والذي كانت تثيره دائمًا ابنة عمها وكانَ اسمها "ندى" بالمناسبة.

فتاة لطيفة تحمل الرقة في قلبها كما يحملها تمامًا اسمها، "ندى" لطيفة جميلة حلوة الكلام والحديث، تتفنن في البكاء برقة يذوب لها قلب كل رجل رآها تبكي أمامه، ويا للعجب دائمًا كانت "رزان" -التي تسعى لإلحاق الأذى بـ "ندى"- سبب بكاءها الدائم، يا لها من مجرمة!

بعد أشهر قليلة تجنب الجميع "رزان" كما لو كانت مرضًا فتّاكًا يفر الكل منه، إذا جلستْ في مكان جلسنا في مكان غيره، وإذا تحدثت مع المُحاضر صَممنا آذاننا عن حديثها وإذا سارت بأحد الأروقة سلكنا رواق غيره!

وانتهى عامنا الأول ويا للمفاجأة كانت "رزان" صاحبة المركز الأول فيه، كيف لهذه القبيحة أن تتقدم عليّ وكيف لها أن تحصد درجات عُليا وهي التي تقضي ليلها ونهارها في نسج الحِيَل والشرور لإلحاقها بـ اللطيفة "ندى"!

بعد سلسلة طويلة من الأحداث العادية وغير العادية والتي لا أحبُ أن أزعجك بها وصلنا إلى عامنا الرابع، لم تعد رزان ذات الأهمية الخطيرة التي كانت تحتلها مسبقًا فـلسبب نجهله كانت كثيرة الغياب إلَّا أنها مع ذلك لم تُفوت مركزها الأول خلال الثلاث سنوات الأولى.

ولسوء الحظ بينما كنا نجلس لننجز بحث العام الأخير وجدت أن "رزان" هي الزميلة التي يتحتم أن نتشارك أنا وهي إعداد بحثنا سويًّا وبعد إجراءات عبثية قمتُ بها حتى أستبدلها بزميل آخر إلَّا أنه لم يُسمح لي، فذهبت إلى كافتيريا الجامعة أنعي حظي للرفاق، وألعن حانقًا في الجِنية القبيحة المُشوهة التي فرضوها عليَّ وسط ضحكات وسخرية الزملاء.

ولم أكد أتم حديثي حتى وجدتُها تقف أمامي تنظر لي في لوم وعتاب وكأنها تتساءل ماذا رأيتَ مني حتى تتعمد إهانتي هكذا على رؤوسٍ الأشهاد؟

وتوقف الكلام على طرف لساني وتجمدت عيناي في محجريهما وأنا أنظر لـرزان نظرة عطف للمرة الأولى، فتاة طيبة تكاد الدموع تطفر من عينيها لكنها حبستها بمرارة تبتلع ريقها أكثر من مرة في الثانية، تفتح شفتيها مرارًا لتقول شيئًا لكنها تصمت ف النهاية وأخيرًا تجهش بالبكاء ثم تغادر على عجل.

أعود إلى بيتنا مُنهكًا أسأل نفسي لِمَ أكرهها كل هذا الكره وهي التي لم أرَ منها ما يستدعي ذلك، ولِمَ أبغضها دون بَينة وأسيء إليها وهي التي لم تقدم الإساءة يومًا لأحد سوى فِي حكايات ندى!

أيعقل..؟ أيمكن أن يكون حديث ندى عنها كذب في كذب وافتراء في افتراء؟!

في اليوم التالي ذهبت إليها في مكانها المُعتاد بـالحديقة الخلفية في الجامعة والتي لم يكن يطرقها طارق سواها، قررت الحديث إليها والاعتذار عن فكرتي المسبقة عنها والتي لا أدري إن كانت صائبة أو مُخطئة، إلَّا أنني لم أجدها، وعلى مدار شهر كامل -قضيتُ نصفه الأخير محمومًا- لم تظهر "رزان".. حتى جاء يوم مناقشة البحث الخاص بنا.

فوجدتها هناك تحمل كُتبها أمام القاعة، تتجه إليَّ فور رؤيتها لي وتمنحني نسخةً من البحث المزعوم قائلة:

- لقد أنهيتُ بحثنا كله، لكن يمكننا تأجيل المناقشة يومين أو ثلاثة حتى

يتسنى لك قراءة البحث بدعوى أنك كنت مريض، مُحاضر المادة وافق على ذلك.

وانصرفت رزان دون انتظار للإجابة إلَّا أنها منذ هذه اللحظة لم تنصرف من عقلي أبدًا، أصبحت أتحين الفرص للحديث إليها لكنها لم تكن تسمح، ولا أكف عن الجلوس في الحديقة الخلفية إلَّا أنها كانت تنصرف كلما وجدتني جالسًا بها.

أصبحت أنا من يسعى للحديث إليها، وأصبحت هي من تَفر مني فرار مُحب الحياة من الموت، حتى أيام اختباراتنا الأخيرة كنت أعدُ للقائها كمن يُعد للقاء نصفه الآخر.

اعترضت طريقها في الجامعة ولم أخجل من نظرات الجميع المُستفهمة، ولا من حركتها السريعة بعيدًا عني، جذبتها من حقيبتها قائلًا:

– رزان انتظري، اسمعيني للمرة الأخيرة.. آسف لم أقصد أن أجرحك لا أعرف كيف تصرفتُ هكذا ولم أكن أعرف أنك ستسمعين الحوار كله.. ندى هي من تسببت في كرهي لك، لكنني نادم الآن رغم أنني رجل لم يعرف الندم إلى قلبه طريقًا.. كلما تذكرت أنكِ من أجريت بحثنا وحدك وتحملت عبء إنهائه رغم أنه من المفترض أن أنهي أنا نصفه، وأنكِ من تقدمت لإدارة الجامعة بالعفو عن مناقشتي لأن المرض حال بيني وبين ذلك وكنتِ مُحقة.. وأنك برغم إهانتي لك أمام الرفاق لم تقابلي الإساءة بإساءة مثلها، فقط أجهشتِ بالبكاء رغم محاولاتك المستميتة للصبر والصمود.. كل هذا

يدفعني للاعتذار لك وطلب العفو منك رغم علمي التام بأنك تعرفين جيدًا أنني الفتى المُدلل الذي لم يسعَ أبدًا للاعتذار لأحد أو طلب العفو منه، سامحيني يا رزان.

وابتسمت رزان ابتسامة هادئة جدًّا لم أفهم مغزاها، ثم انصرفت بعد أن منحتها كتاب "التأقلم مع الواقع" كنتُ قد عرفتُ خلال تتبعي لها أنها تسعى لاقتنائه لكنها لم تفلح لصعوبة توفره، فقَبِلتهُ على مضض حتى أفسح لها طريقها!

كنت راضيًا عن تصرفي على خلاف العادة، سألت ندى عن منزل رزان فلم تخبرني!

وتساءل الرفاق ما الذي يريده منها وهو الذي قضى سنواته الأربع في السخرية منها والتشنيع بها.

اختفت رزان مُجددًا، كنت بحاجة مُلحة للحديث إليها رغم عدم وجود أسباب منطقية لذلك، لكنني أوعزتها كلها للفضول، الفضول ليس أكثر من ذلك لأنني خشيت أن أكشف سِتر روحي أمام روحي، أيعقل أن أحبها وهي التي قضيت كل أيامي المنصرمة في ادعاء أن هذه الجنية لا تستحق الحب!

في اختباراتنا الأخيرة كنت أترقب لحظات وجودها قبيل موعد الاختبار إلَّا أنها لم تكن تأتي إلَّا في الموعد المُحدد بالضبط وترحل فور إنهائها للإجابات وبالتالي كانت أول الموجودين رحيلًا، لم تسنح الفرصة للحديث إليها أبدًا سوى في يومنا الأخير.

طاقم تأهيل الخريجين بالجامعة أعد حفلًا ختاميًّا لتوديعنا، وكانت هي أول المدعوين باعتبارها فتاة الجامعة الأولى، ظهرت رزان في القاعة من بعيد، ألقت كلمات سريعة عن الشرف والعدالة والأمانة قالت إننا مبعوثي الإله لإقامة العدل بين الناس ويا ويل من تخاذل عن مهمته فسار ظالمًا للناس مُفسدًا في الأرض، كانت عيناها مثبتة على ندى.

إلَّا أنني شعرت بأنها تقصدني أنا تحديدًا بهذا الجزء، اعتذرتْ "رزان" منصرفة لأن والدها مقيم بالمشفى منذ مدة ووحدها من تُقيم معه.

ركضتُ خلفها، حاولت الحديث إليها لكنها أجابت بكلمات مقتضبة، سألتها إن كنت سأراها بقاعة المحكمة قريبًا لكنها أجابت ساخرة بأن رجال القضاء مثلي ومقيمي العدل في البلاد لن يذهبوا إلى قاعات المحامين أبدًا.

بعد أربعة أشهر قضيتهم في إجازة صيفية خارج البلاد، كنت أول الحاضرين هناك بعد ما علمت بأنها اتخذت من المحاماة سبيلًا لها، انتظرت ساعة تلو أخرى، لكنها لم تظهر، متأففًا حاولت أن أغادر المكان، لِمَ كل هذا الانتظار ولأجل مَن كل هذا الركض، رزان فتاة طيبة على حد قَول قلبي فقط إنما كل الأدلة والبراهين والتي لا أعرف مدى صدقها تؤكد أن رزان جنية شريرة شكلًا وموضوعًا ولا يليق بي أبدًا تحمل تعنتها أو الركض خلفها للحديث إليها.

قبيل خروجي من الباب الخلفي جذبني من شرودي أصوات عالية مُحتدة يختلط بها صوت أنثوي ضعيف.

لم أكد أصل إلى ذاك التجمع لحل الإشكال رأفة بالعجوز التي تبكي وسط هذا العبث حتى امتدت يد معروفة تجذبني من ذراعي يقول صاحبها بصوت لا يصدق ما يقول:

- "عمر القاضي "عندنا في المحكمة! أيعقل أن يصبح الرجل قاضيًا بهذه السرعة؟

بعد سلام حار مع صديقي "سيف" تساءلت لِمَ يتم طرد هذه العجوز من هنا بهذه القسوة، وكانت الإجابة أبعد ما يكون عَن تصوري.

- إنها سيدة مريضة أكلت منها الحياة وشربت تأتي إلى هنا كل يوم بعد ما سُجن ولدها الوحيد منذ عامين لأنه اقترض مبلغًا طائلًا ليجري لها جراحة عاجلة، في النهاية لم يقدر على سداد المبلغ فسجن على إثره.

تأتي إلى هنا كل صباح تسأل القاضي الذي حكم على وليدها بالسجن أن يعيد النظر في أمره، مسكينة لا تعرف القانون، لم يخفت الأمل داخلها أبدًا رغم أننا حاولنا إفهامها مرارًا إلَّا أنها تأبى الفهم، بالمناسبة تخيل من يعول هذه المرأة منذ ثلاثة أشهر؟!

- لا أعرف كنتُ سأسألك السؤال ذاته.

وكانت المرأة على قيد سنتيمترات منا تقف بوجه أحمر وعيون تجمعت الدموع في مقلتيها ترتدي ملابس سوداء لا توحي أبدًا بحالتها المادية السيئة تسأل كل محام يقترب منها ألا يجدي تكرار الدفاع لتخليص ابنها مما تسببت هي دون قصد فيه!

- بالطبع تذكر جنية الجامعة الشريرة.. رزان القبيحة، بالتأكيد لا زلت تذكرها.. وقطع حديثه فجأة ظهور رزان المُباغت ولا أدري كيف ظهرت رزان في هذه اللحظة تحديدًا.. وللمرة الثانية تقف قبالتي تمامًا تسألني عيناها سؤالًا صامتًا.. لماذا تتعمد إيذائي بهذا الشكل، وكما حدث في المرة الماضية حاولت أن تقول شيئًا لكنها في النهاية ابتلعته ثم انصرفت مسرعة بدموع لم تنجح في كبحها.

نظرتُ إلى صديقي نظرات نارية كفيلة أن تحرقه ولكنه للأسف لم يحترق ولم يشعر بأنه ارتكب جرمًا في حق الفتاة التي أُحب!

بلى أنا أُحب رزان ومن الخير لي أن أعترف الآن وألَّا أكابر أكثر من هذا.

اقتربت من رزان التي تحادث السيدة بوجه مكفهر وملامح حزينة، انتظرت حتى تنهي حديثها مع السيدة وكانت تؤكد لها أنها لن تتخلى عنها أبدًا وأن قضية ابنها يمكن البت فيها مرة أخرى إذا تبرعت جهة خيرية بثلاثة أرباع المبلغ المذكور وهي لن تدخر جهدًا بإبلاغ الجهات المعنية بالأمر لأن الولد لا زال في مقتبل عمره كما أنه العائل الوحيد لها وهدف اقتراضه للمبلغ هدفًا نبيلًا يستحق أن يُكرم لأجله لا أن يلقى في السجون.

في غمرة انشغالي بالحوار الدائر لم أنتبه إلى المطر المتساقط حولي حتى وجدت السيدة تفرك كفيها في محاولة منها لاستجلاب الدفء وهي تدعو لرزان أن يفتح الله لها كل الأبواب المغلقة، وبوجه مُشرق غير الذي أراه دائمًا أزالت رزان عن كتفيها معطفًا صوفيًا كانت تدثر به وقدمته إلى المرأة وهي تقول باسمة.

- هذا لأجل دعائك الجميل لي.. فلا تبخلي عليّ أبدًا به.

- لكن المطر سيغرقك يا ابنتي.

- لا عليك فقط أغرقيني أنتِ بدعائك.

انصرفت المرأة ولحقتُ برزان لكن قدرتها على الهروب مني كالعادة لم تسمح لي بالحديث إليها، أعلم أنني تسببتُ لها بجراح كثيرة وأنني كلما حاولتُ تعديل الأمر زِدته سوءًا فتركتها ومضيت على أمل الحديث إليها يوم غد.

لكن يوم غد هذا لم يأت كما كنتُ آمل، رزان اختفت على غير العادة والسيدة كانت تأتي لرؤيتها كل يوم إلَّا أنها كانت تبوء بالفشل كل مرة، حاولت تقديم المساعدة المادية للسيدة إلَّا أنها رفضت في البداية كانت تتحجج بأن رزان لم تدعها بحاجة لأحد فأحببتُ رزان حبًا على حب، لكن بعد فترة وتحت وطأة الحاجة قبلت السيدة أخيرًا.

ومر عام لم يحدث فيه شيئًا ذا جدوى اللهم إلَّا عودة الابن لأحضان أمه بعدما قبلت إحدى الجمعيات الخيرية ما قدمته رزان من وثائق سابقًا لإثبات أن السيدة تستحق المساعدة.

يومها تخيلوا كنت أنا القاضي الذي يبت في المسألة للمرة الثانية، وكانت السيدة تتعامل معي سابقًا وكأننا معارف أو أصدقاء لكنها عندما فوجئت بي قاضيًا يحكم في قضيتها راحت تقسم أنها لم تكن تعرف وإلَّا لتعاملت معي بما يليق بي من السيادة، فقبلتُ رأسها وطلبتُ منها أن تنتظرني في غرفتي.

كانت ترتدي سترة رزان الصوفية وبيديها حقيبة سوداء أذكر أنني رأيتها من قبل، تحديدًا عندما أخرجت منها رزان ملف البحث الذي صنعته لأجلي يوم أن حالت الحمى بيني وبين إتمامه!

وبعد قليل من التردد سألتها:

- ألا تعرفين شيئًا عن رزان؟

ففاجأتني بقولها أن "رزان" زارتها بالأمس وأنها حاولت تقديم المساعدة كعادتها لكنها أقسمت لها أن السيد "عمر" لم يدعها بحاجة لأحد، وتساءلت رزان في شك من يكون "عمر"؟

ولم تدخر السيدة جهدًا في الحديث عنه والتلميح بأنه لم يكف أبدًا عن البحث عنها، وارتبك "عمر" على غير عادته، لم يشعر أبدًا أن مشاعره مكشوفة إلى هذا الحد ومعروفة إلى ذاك المدى.

لكن السيدة أردفت بصوت أم وهو المحروم منها منذ يوم ولادته "الوجوه مرآة القلوب يا بني!"

هَمّ ليسألها ماذا تقصدين، لكن الكلمات أبت أن تغادر شفتيه، خشي أن تجيبه صراحة بحقيقة أنه يحب رزان وهو الذي يهرب دائمًا من هذه الحقيقة فيدعي أمام نفسه كل مرة أنه يرغب في الاعتذار منها فحسب رغم أن شعوره تجاهها أبعد ما يكون عن الاعتذار، إنه شعور صادق بالحاجة إلى قلب صاف كقلبها وروح بريئة كروح رزان التي لم تؤذ أحدًا أبدًا رغم أن الجميع يسعى لإيذائها.

– ماذا يفيد جمال الوجوه إذا كانت القلوب فاسدة يا بني وماذا يضر الوجوه إذا كانت قلوب أصحابها تشبه تمامًا قلوب الملائكة؟!

فكر مرة أخرى إنك طيب ونبيل مثلها!

انصرفت السيدة، فكر أن يطلب منها إخباره حال ظهور "رزان" مرة أخرى لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة ودعاها تنصرف في هدوء بعد تهنئة حقيقية منه لخروج ابنها "عصام" من محبسه.

مَرت ثلاثة أعوام على آخر لقاء له برزان، لم يقل أنه نسيها تمامًا لكنها على كل حال لم تعد ظاهرة بقوة في أفكاره، كلما زاره طيفها ابتسم رغم عدم وجود شيء يدعوه للابتسام اللهم إلَّا تذكره لقلب صاف لم يصادف أبدًا قلبًا مثله، اليوم يجلس على كرسيه تحت ميزان تساوت كفتاه يحكم بين الناس بالعدل رغم أنه لم يكن عادلًا مع فتاة طيبة كرزان، كلما دعته الحاجة لإصدار حكم ما ارتسم طيف رزان أمام عينيه فيعيد النظر في أحكامه مرة أخرى، يكفيه أن يكون ظالمًا لمرة واحدة فقط.

– اليوم قرر الذهاب إلى الجامعة للقاء صديق قديم عَلِم مؤخرًا بتعينه فيها مُحاضرًا، ساقته قدماه إلى هناك دون وعي منه وبلا ميعاد مُسبق من صديقه، كانت الحديقة الخلفية أول مكان قرر الذهاب إليه تخيل أن "رزان" لا زالت جالسة هناك، يا له من تفكير أحمق أيعقل أن تأتي إلى ذات المكان رغم مرور أربعة سنوات على تخرجهما، ويا للمفاجأة الخارقة! "رزان" تجلس هناك بالفعل ترتدي نظارة عريضة تخفي جزءًا عظيمًا من وجهها لكنه مع ذلك

عرفها وبين يديها كتابٌ يعرفه جيدًا اسمه "التأقلم مع الواقع" كان قد منحه لها ذات يوم!

فرك عينيه جيدًا، أغمضهما مرة وأبصر بهما مرة أخرى ثم أغمضهما مُجددًا، أيعقل أن يكون واهمًا وأن الوهم هو من صورها له؟

لكن لا، إنها تجلس أمامه تطالع كتابه بين يديها، اقترب منها لن يضيعها من بين يديه هذه المرة، ألقى التحية فردتها دون أن ترفع بصرها إليه في بداية الأمر لكن بعد ثوان أدركت لمن نبرة الصوت هذه، رفعت عينيها في توجس خشية أن يصدق حدسها فعلًا!

إنه هو "عمر القاضي" يقف قبالتها بعد مرور أربعة سنوات لم تدخر فيهما جهدًا للتخفي عنه لأنه كان سببًا وجيهًا من أسباب تعاستها بسبب سخريته غير المبررة منها وجعلها أضحوكة الجامعة سابقًا حتى عزفت عن المجيء إليها، إذا كانت "ندى" ووالدها قد تسببا عامدين في الحروق التي طالت وجهها وجسدها قديمًا بسبب خلافات مزرية على الميراث.

فهو بوقاحته ونذالته وانعدام إنسانيته ليس أقل جرمًا من ندى ووالدها!

- آسف على كل ما سببته لك من متاعب.

كاذبة هتفت:

- لا أذكر أنك كنت سببًا في متاعبي يومًا ما.. عفوًا سيدي هل نعرف بعضنا أصلا؟

ثم حملت حقيبتها وكتبها وانصرفت وتركته غارقًا في دهشته.

بعد حديث مقتضب بينه وبين صاحبه القديم عرف أن رزان تم تعيينها مُحاضرة هنا هي الأخرى.

- لا تصدق إنها إنسانة رائعة، ملاك على هيئة بشر، الجميع هنا يُحبها والطلاب يلجؤون إليها في كل صغيرة وكبيرة وكأنها واحدة منهم ويا للعجب إنها لم تمانع أبدًا، سألتها مرة إن كانت لا تزال غاضبة مني بسبب سخافاتنا القديمة -بالتأكيد ما زلت تذكر- لكنها وسط دهشتي قالت أنها سامحتني بشرط ألَّا أسعى لجرح كرامة إنسان مرة أخرى!

بعد أيام قليلة كان "عمر" يجلس في بيتهم خاطبًا بعد أن عَرف كل شيء عنها، كان يأمل ألَّا ترده وكانت هي تأمل ألَّا يكون ما دفعه لخطبتها شعوره بالذنب لأنه أساء لها يومًا ما، أعدت كلامًا كثيرًا قبيل حضوره هدفه الأول أن تحرره من عقدة الذنب التي أتت به في النهاية خاطبًا، لكنها تحت وطأة الإحراج لم تقل شيئًا مما أعدته، أما هو فلم يقل شيئًا غير أنه كان يبحث عنها طوال السنوات الأربع المنصرمة بينما كانت هي تحاول جاهدة التخفي عنه.

لأول مرة تُفكر فيه كخاطب بعدما انحصر تفكيرها فيه كعدو، قلبها يحدثها بأن تمنحه الفرصة تحت وطأة احتياجها لإنسان مثله، "عمر القاضي" رغم كل ما صدر منه إنسان ذو معدن نبيل ونفس لوامة صافية، نعم لعل نفسه اللوامة هذه هي من أتت به إلى بيتهم بالأمس، لعله لم يفكر فيها كزوجة أبدًا، كيف لرجل مثله ذا وجه مُضيء مُشرق وملامح أرستقراطية جميلة وتفاصيل وسيمة للغاية أن يربط مصيره بإنسانة ذات وجه مُشوه مثلها!

- طلبك مرفوض!

كان هذا هو الرد الحاسم والنهائي على اتصاله الأخير، تعلم جيدًا أنها أول المُعذبين بهذا القرار المُتعنت لكنها مهما حدث لن تغامر مُجددًا بمشاعرها تجاهه يكفيها ما مضى من مغامرة، يكفيها أنها أحبته ذات يوم وهو الغارق في الإساءة إليها والتشنيع بها!

- دكتورة رزان.. قبل بدء أول مُحاضرة في عامنا الدراسي الجديد، يمكنني الحديث إليك؟.. لا أظن أنكِ تعرفينني لأننا لم نلتقِ أبدًا لكنني أعرفك جيدًا لأنكِ كنت سبب حريتي ذات يوم.. اسمي "عصام"!

أمي أخبرتني أنك ملاك صاف فدرست الحقوق حتى يتسنى لي مقابلة ومعرفة هذا الملاك.

كنتُ مُخطئًا عندما اقترضت في سبيل علاج أمي رغم عدم تواجد بارقة أمل واحدة تمنحني سداد ما اقترضت، لكنكِ منحتني الفرصة لتعديل الخطأ، يومها قلتِ لأمي أن هدفي نبيل وما دام الهدف نبيلًا فصاحبه بحاجة للمساعدة والمسامحة لا القضاء عليه!

أمي تجلس هناك في آخر القاعة بين طلابك المُحبين أرسلها رجل يحُبك كي تتوسط له عندك، ساعدني ذات يوم لأن في داخله ملاك هو الآخر فيسر الله أمري على يديه، هذا الرجل جاءت أمي إلى هنا خصيصًا لأنه وكلها بأمر خطبته لك نيابة عن أمه الراحلة، أرجو ألَّا تخذلينها أمامه.

أرسل أمي لأنه في موقف كهذا بحاجة لحنان أم، أشعر أنه أخي وبأننا

أصبحنا على حين غرة عائلة، هذه العائلة بحاجة لزفاف ينعش أيام الفرح فيها فلا تبخلي علينا يا آنسة به.

مر على هذا الحوار الحميمي أشهر طويلة، أقنعت فيه أم عصام أنها تتمنى لو منحته الفرصة لكن جرحًا قديمًا بقلبها يأبى، تفصلها عنه حواجز كثيرة أولها أنها أثارت اشمئزازه ذات يوم فلم يكف عن إعلان هذا الاشمئزاز والسخرية منه، وآخرها أنها تخشى أن تكون شفقته هي التي دفعته في النهاية للزواج منها ليكفر عما تسبب عامدًا فيه.

وانتهت القصة عند هذا الحد، لا تنكر أنها تمنت ألَّا تنتهي وأنها دعت الله على استحياء ألَّا يمل المحاولة وأن يكون صادقًا في طلبه فلا يثنيه عنه تَمنعٌ كاذب منها، ولولا أنها تخشى أن يندم لاحقًا على قراره المُتَسرع لما تمنعت.

على كلٍ؛ هي راضية عما فعلت برغم شعور بالهزيمة يراودها من آن لآخر لأنها تخلتً عن رجل تَحن روحها لكل شيء فيه، لكن شعورها بالحنين أهون من شعورها بالحماقة والتسرع فيما بعد.

- ابتسمت لعصام الذي يجلس قبالتها تمامًا بوجه مشدود وأعصاب مترقبة ودت لو سألته ماذا هناك، لكنها قررت أن تؤجل السؤال لنهاية المحاضرة، عصام الآن في عامه الأخير بكلية الحقوق يسعى جاهدًا للتخرج بتقدير يناسب طموحه وإلى جانب الدراسة يلتحق بعمل لا يناسب قدراته أبدًا لكنه متمسك به لئلا تحتاج والدته لمساعدة الآخرين مرة أخرى.

"حالات التلبس في القانون الجنائي"

راحت تشرح كل ما له علاقة بالأمر، يأتيها سؤال من حين لآخر فتجيب باستفاضة عنه، وتعرض عليها استشارة قانونية من هنا أو هناك فلا ترد سائلها أبدًا، تمسك بزمام الموضوع مرة أخرى، تسأل أحد التلامذة ما هو التكييف القانوني لقضية ما، وقبل أن تأتيها الإجابة تلمح رجلًا طويل القامة عريض المنكبين يتجاوز باب القاعة في ثبات وهدوء ثم يسير بخطوات وئيدة إلى حيث يجلس "عصام" فيجلس إلى جانبه ينظر له عصام نظرة نصف مُبتسمة، فتتخيل أنها تتوهم حضوره.

تقف الكلمات على أطراف شفتيها لكنها تعجز أن تنطق بها، يشرد منها حبل أفكارها فلا تلتقطه إلَّا بعد أن تلقي نظرة متفحصة على لوح الكتابة الذي كانت تشرح من خلاله، تتحرك حركات عشوائية تفرغ فيها طاقة التوتر التي استحوذت عليها فجأة، كانت تظن أنها لا تتوتر أبدًا وأن ما مرت به من كوارث قتل فيها طاقة الارتباك والاندهاش لكن ما لها تتصرف الآن وكأنها فتاة لم تبلغ عشرينياتها بعد!

تجنبت النظر إليه بينما كانت عيناه مثبتة عليها، حاولت أن تنهي محاضرتها قبل موعد الانتهاء على خلاف العادة، لكن ألسنة طلابها لم تكف عن الاستفسار والتساؤل، حاولت أن تتفادى سيل الأسئلة المتسلط عليها بإنهاء الموقف تمامًا لكن رغبة قديمة في أن تظهر أمامه محور اهتمام الجميع جعلها تصرف رغبتها في إنهاء المُحاضرة، كانت تعلم أنه هو الآخر يمتلك إجابات مسبقة لسؤال كل طالب لكونه قد درس الحقوق معها مُسبقًا في ذات القاعة فأصرت على أن تخرج إجاباتها كأفضل ما يكون.

لكنها من حين إلى آخر يهيئ إليها أنها تحلم وأن كل ما يحدث الآن لا يتعدى أبدًا حدود أوهامها فتعيد النظر إليه بطرف عينها مرة أخرى فتجده في ذات المكان هناك يثبت نظراته عليها وعلى شفتيه ابتسامة حلوة واثقة، تُرى ما الذي أتى به إلى هنا دون موعد مُسبق ودون أي تلميح حتى؟

داهمها خاطر أنه جاء سعيًا لطلب ودها مرة أخرى فاضطربت الكلمات ثانية على أطراف لسانها وداهمها الشعور ذاته بالارتباك والتوتر لكنه ليس ذاك التوتر المُحبب إلى الفتيات إنه توتر من نوع آخر، توتر مصحوب بتقلصات أسفل البطن وخدر في الأطراف والأنامل.

استجابت لرغبتها هذه المرة بإنهاء المحاضرة قبل موعد الانتهاء، وهي تُضمر في باطنها أنه لو أعاد طلبه مرة ثانية فلن ترده خائبًا هذه المرة، راحت تلملم حاجيتها في هدوء بينما تحرك هو مغادرًا مكانه متجهًا إليها وسط همهمات وتساؤل التلامذة، بعضهم يخمن أنه "فارس" رزان قد ظهر أخيرًا وبعضهم الآخر يتمنى أن يصدق التخمين حبًّا لها.

وقف قبالتها مبتسمًا وقد عقد ساعديه أمام صدره.

- لم أتخيل أبدًا أنك قد تشرحين دروسك بهذا الكم الهائل من الهدوء والسهولة والبساطة.. أنت دائمًا ما تتفوقين على كل توقع حتى أحسن التوقعات!

على وجيب صدرها وارتسمت على ملامحها ابتسامة متوترة، هزت رأسها في هدوء ولم ترد، فأمسك بزمام الحديث مرة أخرى ولم تُفارق الابتسامة شفتيه.

- "رزان".. كفاك عنادًا ومقاومة أنت أيضًا نظراتك تشي بك.. تسأليني كيف عرفت؟

من سيشعر بك مثلي يا رزان، رجل أمضى الكثير من أيام شبابه في انتظار كلمة منك وهو الذي لا يصبر على انتظار أحد، يكفي ما مضى من العمر لن أفلتك من يدي هذه المرة حتى لو رفضتِ.. على ذكرِ حالات التلبس أظن أن هذه المرة الوحيدة التي وجدتك فيها متلبسةً بي.. أتنكرين؟

ضاحكة أردفت:

- التلبس لا تتوافر شروطه أبدًا إلَّا حيال ارتكاب جريمة.. تظن نفسك جريمة؟

- لو كان الحب جريمة فأنا أكثر المجرمين حبًّا.. أو أكثر المُحبين جريمة، لا أعرف.

لكنني أظن هذه المرة بأنك قد غفرت بعد طول تفكير و رَوِية.. في هذه اللحظة وقعت عيناه على كتاب "التأقلم مع الواقع" فأكمل وقد وضع يديه في جيوبه:

- أظنك لم تتأقلمي معه بعد؟

- لا أدري.. لكن ربما.

- عرفت بأنك نويت إجراء جراحة تجميلية لإخفاء التشوهات التي تسببت فيها ندى.

ابتلعت ريقها في حرج مردفة:

- كيف عرفت؟

- أتتبع كل أخبارك يا رزان.. وقررت المجيء إليك خصيصًا اليوم لأخبرك بأنني أحبك هكذا، لن أثنيك عن رغبتك إن أردت الإمعان في تنفيذها، من حقك وحدك أن تقرري فيها دون تدخل من أحد، ومن حقك أيضًا أن تنعمي بحياة هادئة لا منغصات فيها تذكرك بجريمة ندى، لكنني أحرص الآن على إخبارك بأنك تأسرينني بجراحة أو من دون جراحة.. ابتسم في توتر هو الآخر وراح يسأل:

- يمكنني أن أزور بيتكم مرة أخرى؟

انبسطت ملامحها بعد أن علاها الاضطراب لفترة وهمهمت بكلمات فهم منها بأنها قد منحته الفرصة أخيرًا.

ابتسامة نصر ارتسمت في عينيه التي راح يديرهما بسرعة بحثًا في القاعة عن عماد الذي كان قد وصل للتو إلى جانبه ليعانقه عناقًا أخويًا بريئًا رغم أنهما لم يكونا إخوة لكن جمعت الثلاثة أمور عصيبة صبر ثلاثتهم عليها فاستحق كل منهم أن ينال جزاء ما صبر.

(3)

نشأتُ في كنف أسرة مشردة، أب لا يعترف بمسؤوليته كزوج، عاطل تمامًا عن العمل، يضيع وقته هباء بلا نفع يذهب صباحًا إلى المقهى فلا يعود منه سوى قبيل فجر اليوم التالي، لا يحترم أمي وينعتها بكل لفظ قبيح، ويؤذيها بكل ما يمكن أن يؤذي امرأة رغم أنها لم تستحق الإيذاء أبدًا، امرأة طيبة وجميلة في نهاية العشرينات، تقدر الحياة الزوجية لكنها للأسف ابتليت بزوج لا يقدر أي شيء فيها، تسعى جاهدة لحفظ كتاب الله وتهرع دائمًا للصلاة وكأنها الملاذ الوحيد الآمن.

في السادسة من عمري كان أبي قد هجرنا تمامًا فضاقت علينا سبل العيش وباتت الحياة دون نفقة منه أمر مستحيل، ولم تجد أمي بدًا من الذهاب إلى القاضي واللجوء إلى محاكم الأسرة عسى أن يعود الأب الشارد إلى رشده وينتبه لصوت الأبوة فيه.

ذهبنا صباحًا إلى مُحامية معروفة بالمنطقة، سيدة جميلة تقارب والدتي في العمر تتحدث بصوت هادئ لطيف وتمنح أمي ابتسامة واثقة ومنديلًا كلما غلبها البكاء خلال الحوار، حينها كنت أتحرك حول أمي عابثة بكل ما تطاله يداي فوق المكتب، أتصفح كتاب موجودًا هنا ثم أنقله إلى هناك، وأقف أتأمل الأشجار خلف النافذة ثم أغلقها بلا مبرر، أشغل الإضاءة الإضافية ثم أطفئها بلا سبب وهكذا حتى أزعجت تصرفاتي الطفولية المرأة الطيبة فما كان منها سوى أن منحتني لعبة بلاستيكية لدمية طلبت مني أن ألعب بها في حجرة الاستقبال بالخارج.

ولم أكد أصل بلعبتي حيث أشارت لي المرأة حتى وجدتُ يدًا صغيرة أخرى تسحبها من بين أصابعي بتصميم وقوة وبعد شجار بسيط على لعبتي والتي كنتُ أعتبرها كنزًا حنيها لامتناع أمي التام عن اقتناء اللعب باعتبارها ترف لا قبل لنا به خاصة بعد تنصل أبي من المسؤولية واختفائه غير المبرر.

اتفقتُ مع الفتى صاحب اللعبة أن يمنح لي لعبته بعض الوقت لنلعب سويًّا بها حتى تغادر أمي فأتركها كما كانت له، سميتُ الدمية "باربي" فحدثني أنه يطلق عليها "سيدة" فضحكتُ لقوله، لا أدري كم مر من الوقت لكنه أكد لي أن باربي جائعة لأن هذا موعد إفطارها الصباحي ثم قدم للدمية شطائر المربي والتي كانت شحيحة في منزلنا بالمناسبة، ثم بعد دقائق قدم لي شطيرته لأنه مَل منها فأكلتها على عجل وسط ضحكاته الطفولية لأنني لوثت فمي ووجنتي ببقايا الشطيرة فما كان منه إلا أن لوث هو الآخر فمه ووجنتيه ضاحكًا معي.

بعد دقائق جاءت أمي لتصحبني إلى البيت، فشعرتُ وكأنني سأودع صديقًا عزيزًا وطلبت منها أن تبقيني هنا ويا لدهشتي فقد طلب منها الصغير ذات الأمر فوعدتنا بأنها ستأتي إلى هنا مرة أخرى ريثما ترسل في طلبنا السيدة والدته، حينها مددتُ يدي له بلعبته كما اتفقنا، قلتُ له خذ "سيدة" لكن لا تنس إن تصحبها معك كل يوم ربما آتي إلى هنا في أي لحظة كما وعدتني أمي، ويا للمفاجأة فقد أنبأني بأن اسمها "باربي" وأنه سيمنحها لي حتى أعيدها له في لقائنا القادم وسأل والدتي حقًّا ستعيدين باربي لي قريبًا؟ فقبّلته أمي.

بعد أسبوع كانت أمي تصحبني إلى هناك، كنت أحمل باربي في يدي كطفل ذاهب إلى نزهة، انتظرت حضور "يوسف" ووالدته بصبرٍ نافد، وأخيرًا حضر بعد ما ظننت أنه لن يأتي أبدًا أخبرني بأنه كان ينتظر حضوري كل يوم وأخبرته أننا لم نأت إلَّا عندما أرسلت والدته في طلبنا، حاولت أن أعيد باربي له لكنه أخبرني بأنها ملكي منذ هذه اللحظة فعانقته عناقًا عفويًّا بريئًا عاقبتني أمي عليه بعد ذلك، وكعادته منحني شطائر المربى لكنه هو من قام بتلويث فمي ووجنتي هذه المرة فضحكنا كثيرًا.

بعد أيام كانت أمي تعمل سكرتيرة للمكتب بعد أن أخبرتها السيدة أنها بحاجة إلى منسقة مواعيد أمينة على قدر من الخلق، وكانت أمي بحاجة تامة إلى الوظيفة فوافقت على الفور، وبات "يوسف" دائم الحضور مع والداته كل صباح فـتوطدت علاقتنا كثيرًا.

حدثني كثيرًا عن المدرسة التي يذهب إليها فطلبت منه أن يصحبني معه ذات صباح فوعدني بذلك عندما تنتهي الإجازة الصيفية، وحدثته عن باربي وعن الفساتين الجديدة التي صنعتها أمي لها فـبات يناديني بـالاسم ذاته لشدة اهتمامي بها!

وذات نهار وكنا يوم أربعاء وبينما نتحدث حديثًا طفوليًّا بريئًا عن شطائر المربى وباربي والمدرسة التي سيصحبني إليها ذات يوم، أُذِن لصلاة الظهر فذهبت للوضوء كما علمتني أمي وطلبت منه أن يتوضأ هو الآخر للصلاة فأخبرني بأنه لا يصلي سوى يوم الأحد عندما يذهب مع أسرته إلى الكنيسة!

في نفس الليلة كنت أسأل أمي لماذا لا يصلي يوسف سوى يوم الأحد؟ كنت أصغر من تعرضي لتباين الأديان واختلاف الملة والعقيدة لكنني تعرضتُ له على كل حال!

ومرت ثلاثة أعوام ماما تحاول جاهدة إبعادي عن يوسف ووضع حدود للعلاقة بيننا خاصة بعدما أدركت مدى تعلقي به، ويوسف يحاول جاهدًا التقرب مني رغم معارضة والدته أحيانًا لأننا نتعامل كأخوة فتتضارب فينا القيم وتختلط العادات.

كنت أعامله كأخي الوحيد وكان يعاملني كطفلته رغم صغر سنه، كل صباح يعرج على مدرستي ليمنحني شطائر المربى خلسة من وراء أمه، وكل مساء ينتظرني أمام البناء الشاهق غير عابئ بمطر أو بـحرٍّ حتى يصحبني إلى مكتب والدته حيث توجد ماما، كان ينادني بـ باربي فيضحك التلاميذ فلا يتورع أن يقيم شجارًا حادًا حتى يمتنعون عن مضايقتي، أذكر يوم أن هطل المطر فمنحني سترته الجلدية وسط ذهول الأصدقاء ويوم أن فقدت حذائي أمام مسجد المدرسة فعدتُ إلى منزلنا بحذائه وعاد هو إلى بيته حافيًا.

ذات يوم حدثته عن قصة "يوسف الصديق" لأنه يحمل اسمه فطلب مني أن أهديه كتاب قرآن لأنه أحب قصته ويرغب أن يقرأها من القرآن بنفسه، منحته مصحفًا كتبت في صفحته الأولى "إلى يوسف أخي أرجو أن تجمعنا إخوة حقيقية ذات يوم، أرجو أن يربطنا رابط الوطن والدين والعقيدة!"

حينها كنت أبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا قضتهم أمي في عذاب متواصل وتعب لا تتخفف أبدًا منه لأجل تربيتي تربية طيبة لكنني كنت أخذلها دائمًا بسبب تورطي في التعلق الدائم بيوسف حتى عثرت والداته على مصحفي ذات يوم فمنعت أمي من مواصلة العمل معها تمامًا.

كانت أم يوسف سيدة ناضجة تحمل في داخلها قلبًا طيبًا وتربطها بأمي علاقة نبيلة رغم اختلاف ديانتهما، لم تمنع أمي من أداء الصلاة في مكتبها أبدًا ولم تقصر من الحضور والاعتزاز بمناسبتنا الدينية رغم أننا لم نكن نبادلها نفس الاهتمام، كانت علاقة مثالية حتى اكتشفت مصحفي مذيلًا باسمي بين حاجيات يوسف فأدركت مدى أهمية إنهاء العلاقة خاصة في هذه الآونة من عمرنا!

ورحل "يوسف" من حياتي، كنت أحاول جاهدة أن لا تلحظ أمي أمر رحيله وكأنني لا أهتم به لكن قلبي في الحقيقة كان يقطر دمًا كلما خرجت من مدرستي فلا أجده ينتظرني أمامها، أو كلما أساءني مراهق ما فلا أجد يوسف إلى جانبي يصد الإساءة عني أو كلما أكلت شطائر المربي ثم لوثت نفسي بها وحدي كما اعتدنا أن نفعل مسبقًا!

كنت أسأل نفسي كل ليلة كيف هان عليه فراقي كل هذه المُدة وكيف استجاب تمامًا لأمر أمه فاختفى من حياتي إلى الأبد، كيف رحل هكذا بلا كلمة وداع واحدة أو دون أن يلوح لي بكفه ولو لآخر مرة، في البداية ظننته تجاهل وَجدي به فآثرت أن أبادله تجاهلًا بمثله حتى انتصر عليّ حنيني إليه ذات يوم فهاتفته تحت وطأة الحنين إليه.

ثلاثة أيام أهاتفه فيها لكن هاتفه مغلق في كل مرة، في النهاية تركت له رسالة عتاب أسأله فيها كيف نسي الأخ الوحيد أخته بهذه السهولة وكان الرد أبعد ما يكون عن عقلي!

أخبرتني أمي أنه سافر إلى روسيا وترك البلاد هو وأهله، مهاجرون بلا عودة، ليلتها بكيت بكاء مريرًا حتى شعرت أنني سأتقيأ قلبي كنت أرفع بصري إلى السماء وأسأل الله أن يرفق بقلبي الصغير الذي ارتكب جرمًا عظيمًا بتعلقه بفتى على غير دينه.

حاولت أمي جاهدة مساعدتي في نسيان "يوسف" كانت تُحَمِّل نفسها ذنب تعلقي به، وأنها لم تسعَ إلى ترك العمل والبحث عن بديل مناسب مذ أدركت أنني أكن له مشاعر ما، حاولت التخفيف عليها وتظاهرت بأن يوسف كان إحدى محطات حياتي التي انتهت برحيله منها نجحت في إقناع أمي بأنني فقدته في زحمة مشاغلي إلَّا أنني وعلى مدار سنوات عديدة وصلت فيها إلى الجامعة وشارفت على إنهاء حفظ كتاب الله وتوظفت بوظيفة تليق بي رغم عدم إنهائي لدراستي الجامعية لم أنس فتى صغيرًا اسمه "يوسف" وصل إلى أعمق نقطة في قلبي فلم أقدر أبدًا على انتزاعه منها رغم محاولاتي الجادة لفعل ذلك!

واتجهتُ إلى إنهاء حفظ كتاب الله مستعينة به أن يُهَدّأ قلبي فلا أذكر يوسفي إلَّا كما يذكر الناس ببساطة أسماء بعضهم البعض، ووجدتُ سلواي هناك في حلقات مسجد مدينتنا مُعلمة وقور طيبة وصحبة صالحة تدفعني

إلى الجنة دفعًا ومصحف لا يغادر كفي إلَّا قليلًا، وكدت فعلًا أن أفقده في زحام مشاغلي لولا أنَّني وخلال حفظي ذات صباح وصلت إلى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73].. حنيها بكيت يوسف كما لم أبكه من قبل، خشيت أن تمسسه النار كخشيتي على نفسي أو أشد، بل أشد.

هدأتني المعلمة وسط اندهاش وذهول الجميع سألتني إن كان هناك بأس ما فادعيت كاذبة أنني بخير رغم أن كل البأس كان في قلبي، ليلتها دعوت الله كثيرًا أن يهديه إلى الإسلام وأن يلهمه الطريق إليه، كنت أسجد باكية فلا أعرف كم من الوقت سجدت وكنت أكرر دعائي له فلا أدري كم مرة دعوت له به حتى انتبهت إلى صوت أمي ذات مرة تهتف خلفي "وادع لنفسك أيضًا أن يشفيك الله منه" فارتميت في أحضانها باكية وكأنني اكتشفت قدرة الإنسان على البكاء للتو فقررت أن أبكى كل ما فاتني من بكاء.

لم أترك وسيلة للوصول إليه إلَّا وطرقتها أو بابًا بإمكانه أن يدلني عليه إلَّا وعبرت من خلاله، لم أصل في النهاية لشيء، فجعلت من ذكرياتنا معًا زادًا لي كلما دفعني الحنين إليه لوثت وجنتي بشطائر المربي أو مشطت شعر باربي وبدلت لها ردائها حتى يسعد بهيأتها النظيفة يوسف!

في عامي الأخير بكلية اللغات كنت قد أتقنت الروسية تمامًا فاشتغلت بالترجمة حينًا وبالإرشاد السياحي حينًا آخر، وكفيت أمي مؤنة العمل الشاق

عند من لا يرحمون من أرباب الأعمال، حتى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه مع الوفد الروسي لزيارة آثار وأهرام مصر.

رحتُ أشرح لهم تاريخ مصر القديم وأخبرهم معلومات شتى عن المبنى العظيم الرابض هنا منذ آلاف السنين وأنا لا أدري لِمَ يزورني طيف يوسف فتستحوذ ذكراه على حبل أفكاري فتقطعه كلما حاولتَ جاهدة أن أمسك به.

ربما بسبب المطر اللطيف المتساقط حولي والذي يذكرني دائمًا به وبسترته الجلدية التي منحها لي ذات شتاء فظللت أحتفظ بها حتى هذه اللحظة، ربما لأنني ظننت أنه هاجر إلى روسيا فتعلمت الروسية خصيصًا لأجله، أو ربما لأنني أعتقد أن هذا الوفد الروسي أو هؤلاء الناس قد رأوه مسبقًا في طريق ما فلم ينتبهوا له وأنا التي تتمنى أن تلمحه ولو للحظة!

ولم أكد أنتهي من الأفكار المتدفقة داخل عقلي حتى لمحت رجلًا على الجانب الآخر من الطريق لم أرَ منه إلا ظهره لكنني مع ذلك عرفته رغم أنني لم أره منذ أكثر من تسع سنوات، إنه هو يوسف بهيئته التي أعرفها كما لم أعرف أحدًا مثله بطوله الفارع ومنكبيه العريضين وظهره المستقيم في غير انحناء وشعره الطويل نوعًا والمستقر على آخر عنقه وحدود كتفيه فبات يشبه ملوك الرومان ممن حكى لي قديمًا بعض أساطيرهم فصرت أتخيله واحدًا منهم.

وتركت مكاني في مقدمة الوفد واندفعت إليه ناطقة اسمه بصوت مبحوح لا يصدق ما ينطق به وبعينين نديتين وذراعين مفتوحين دون وعي كي أعانقه بهما وأنا التي لم تصافح رجلًا حتى!

ولم يكن اللقاء حميميًا كما توقعت ذهبت إليه بذراع مفتوح فما كان منه إلَّا أن مد أطراف أصابعه في تردد ليصافحني من بعيد، وتبادر إلى ذهني على الفور أنه لم يعرفني فسألته في خذلان وخيبة:

- يوسف؛ ألا تذكرني أنا باربي؟

فقال برسمية مفرطة:

- بلى أذكرك جيدًا، كيف حالك يا "رغد" وكيف حال ماما..؟

وانقضى اللقاء بعد سؤال باهت عن الحال واعتذار سريع منه لأنه يصحب بعض أصدقائه في رحلة وعلى عجلة من أمره.

لحظتها لم أبك لقسوته في التعامل معي رغم أنها كانت أقسى اللحظات مرورًا بي، أيعقل أن يفقد إخوَّته لي بهذه السهولة وأن يفقدني في زحمة حياته حتى يعاملني كالغريبة وأنا التي قضيت سنوات عمري في انتظاره والبحث عنه والدعاء له بأن يشرح الله صدره للإسلام حتى نلتقي سويًّا في جنته إن عز علينا لقاء الدنيا!

ابتسمت له، أخبرته أنني سعدت بلقائه والاطمئنان عليه رغم أن موقفي هذا كان أكثر أوقاتي خذلانًا وتعاسة.

ذهبت إلى المسجد كان اختبار قرآن اليوم في سورة المائدة حاولت أن أطلب من المعلمة تأجيل الاختبار لكنها لم تسمح، بكيت بكاء مريرًا عند الآية ذاتها لم أعد أعرف ماذا أريد ولا ما الذي يرضيني حدوثه، يوسف لم يرحل قبل تسع سنوات وإنما قرر الرحيل صباح اليوم!

ظننتُ أنه سيندهش فور رؤيتي سينادیني بـ بارِبي سيترك كل ما يشغله ليتناول معي شطائر المربى، سيخبرني كم افتقدني وكم قضى ليال طويلة في البحث عني ومحاولة الوصول إليّ، سيحكي لي كم مرة قرأ فيها سورة يوسف لأنني أحبها وكم مرة أمسك بمصحفي فشعر بأنني لا أمل الدعاء له، ظننته سيحكي لي عن ملوك الرومان فأخبره أنه واحدٌ منهم وعن افتقاده لي فأخبره أنني أبادله الشعور بآخر يفوقه، ظننت بأنني يومًا ما سأخبره كم حلمت أن يدفعه القدر في طريقي وكم تخيلت كيف سيكون لقاؤنا رائع وجميل بعد كل هذا الغياب، لكن كل هذا ظل مجرد تخيل!

سامحني يا رب..

سامحني لأنني أبكي على ما أخذته مني رغم قِلته أكثر من امتناني وشكري على كل ما منحتني إياه.

سامحني عندما أظن بأنك ابتليتني بحرماني مما أُحِب رغم أنك كنت تنقذني من اختياري الخاطئ.

سامحني عندما أحزن رغم قولك: ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [فصلت: 30] وعندما أيأس رغم قولك ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 87] وعندما يَنفد صبري رغم قولك.. ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 155].

مضت أيام قليلة حاولت فيها التأقلم مع فكرة الهوة العميقة التي تفصلني عنه وأن لقاءنا الجاف هذا كان رحمة من الله بقلبي الأحمق الذي كان ينتظر أحدهم بلا أمل في عودة أو رجاء في لقاء، الحياة ليست كريمة إلى هذا الحد

وانتظار من لا يناسبني سخافة في عبث وعبث في سخافة، لا يليق بحاملة كتاب الله أن تحب نصرانيًّا وأن تمضي حياتها في الدعاء له كي يرشده الله إلى الصواب ويلهمه اختيار الوِجهة، يكفي ما مضى من دعاء وانتظار وخيبة عظيمة.

وطنت نفسي بأن ذكرياتي القديمة معه لا يجب أن تكون سوى مجرد ذكريات طفولية ومن الحماقة أن تظل هذه الذكريات حبيسة عقلي وقلبي أيضًا.

بعد هذه الحادثة بأيام قليلة قرر مسجد مدينتنا إقامة حفل بسيط لتكريم الحافظات وكنت واحدة منهن لم يسعدني التكريم قدر سعادتي بإنهاء حفظ كتاب الله عسى أن يحفظني الله به.

أمسكت مصحفي وكتبت باكية على آخر صفحة فيه "لقد افترق الإخوة إلى الأبد ولن يعودوا إخوة أبدًا"، يومها ودعتُ الوفد الروسي إلى المطار لكن بقلب غير الذي استقبلته به، هاتفتني أمي كثيرًا لكن ضغط العمل حال بيني وبين الرد عليها.

كتبت لها رسالة مقتضبة طمأنتها فيها عليّ وبأنني سأكون بمسجدنا في الوقت المُحدد، وذهبت أخيرًا إلى المسجد حيث النساء الباكيات فرحًا بإنهاء حفظ كتاب الله أو شوقًا إلى إنهائه، جميعهن أشرن لي بالمباركة دون حديث توقيرًا لخطبة الإمام القابع أمام المنبر فاكتفيتُ أنا أيضًا بالإشارة لكن هناك أمرًا ما، الجميع ينظر إليّ نظرات مطولة تشع بهاء وسعادة رغم أنني لست الحافظة الوحيدة هنا!

ورحتُ أدور بعيني بين السيدات المحملقات بلا داع في سحنتي التي فرض التوتر نفسه عليها فرضًا، وتوقفت عيناي على سيدة خمسينية أظنني أعرفها جيدًا لكن عقلي عجز تمامًا عن تذكر من تكون، ولاحقتها بعيني مرارًا رغم خجلي من مداهمتها بهذا الشكل وفجأة لمعت في ذهني صورة لسيدة محامية طيبة تعمل أمي سكرتيرة خاصة لها، وظننتُ أنني أحلم أو أن الوهم أحكم قبضته عليّ أيعقل أن تكون هي فعلًا أم يوسف! وما الذي جاء بها إلى المسجد فتجلس إلى جانب أمي؟ أووووه ما هذا الحجاب الذي تخبئ بداخله شعرها؟!

وغادرتُ مكاني مندفعة حيث تجلس المرأة لكنني كبحت جماح قلبي في اللحظة الاخيرة ومررتُ حلوى على جميع الحاضرات ثم سألت السيدة عن ماهيتها فقبلتني ثم أجلستني إلى جانبها دون أن تجيب!

وتعالى صوت الإمام معلنًا اسمي كأفضل حافظة لكتاب الله فشعرت بالخجل من صورة فتاة اندفعت لتعانق شابًا ما منذ أيام، الحمد لله أنه أعادها لرشدها قبل أن ترتمي بين أحضانه!

وجذبني من شرودي فجأة إعلانه لإسلام شابًا ووالدته جاءا خصيصًا من بلاد المهجر ليعلنا إسلامهما هنا بين محبيهم وأهليهم وممن فارقوهم منذ أكثر من تسع سنوات ولم أعد أفهم ماذا يقول الإمام ولا من هذا الشاب الذي جاء لإشهار إسلامه، كان هذا يفوق حدود توقعي وأكثر ما يمكن أن يسلب مني عقلي وأعلن الإمام اسم يوسف مُتبعًا باسم والدته واختلطت

الأصوات بالمباركات والتهنئة وأزيح الستار الذي يفصل الرجال عن النساء وتقدمت المرأة لتنطق بالشهادتين بين يدي الشيخ!

وتوقفت أنا هناك في أقصى المسجد أبكي وأنظر إلى ملامح يوسف الملائكية وأبتهل إلى الله أن يكون ما يحدث الآن حقيقة لا حلمًا، وتقدمت مني أمي تهتف بكلمة واحدة متكررة "حقيقة فاطمئني".. الجميع بارك إسلامها إلَّا أنا، في الحقيقة كنت بحاجة أن يبارك الجميع لي!

هذا أفضل ما مررت به وأفضل ما حدث لي على الإطلاق، واقتربت مني المعلمة تربت على كتفي وتعانقني قائلة: الآن فهمت بكاءك المتكرر عند سورة المائدة، مبارك لك ختم كتاب الله ومبارك لك إسلام فتاك، وشعرت بالمكان يدور بي وخشيت للمرة الثانية أن يكون الوهم صور لي ما حدث إلَّا أنه تقدم إليَّ مبتسمًا واخترق زحام الواقفين حتى وقف بمحاذاتي تمامًا هاتفًا:

- خشيتُ أن أكون السيئة الوحيدة في حياة فتاة لم ترتكب السيئات أبدًا.

فعرفتُ أنه يقصد موقفنا الماضي الذي أحجم فيه عن عناقي والحديث إليَّ فشكرت له صنيعه، هنئني على إنهائي لحفظ كتاب الله وأخبرني ضاحكًا بأنه يستعد لحفظه أيضًا إذا رغبتُ في مساعدته، ودون مقدمات أمسك بمصحفي الذي بين يدي فتركته له!

قارب الحفل على الانتهاء وعانقت والدته بكل ما أوتيت من عناق كنت أخشى أن تتسرب من بين يدي فأفيق على لا شيء مما حدث، طلبت منها أن ترافقنا إلى المنزل فأكدت رغبتها بالزيارة "يكفى الشتيتين ما عانوه من هجر

وألم وفراق.. لقد صبرا بما فيه الكفاية".. ولم أفهم ماذا تعني لكنها ابتسمت ابتسامة أم ستخطب لوليدها الليلة!

عندما حل الظلام، كنت أجلس في ردهة بيتنا أرتدي فستانًا أبيضًا بنقوش خفيفة زرقاء وحجاب قصير أزرق، أنظر إلى يوسف الجالس أمامي وكأنني أراه للمرة الأولى وأحدثه بصوت منخفض لا يكاد يُسمع لأنني لا أصدق ما أنطق به ويبدو أنه توقع عدم تصديقي فأعاد إليّ مصحفي الأخير وقد أضاف لجملتي الأخيرة.. "لقد افترق الإخوة إلى الأبد ولن يعودوا إخوة أبدًا" لأنهما بعد أيام سيصبحان زوجين فاستعدي!

(4)

لم تندفع إلى السيارة لتطرق الزجاج بإلحاح ممل ولم يسل سيل الدعوات المكررة التي تحفظها عن ظهر قلب من لسانها كما كل مثيلاتها من فتيات وأولاد الشارع، فتاة صغيرة تبلغ من العمر ست سنوات أو ربما أقل تجلس وحيدة على رصيف الشارع مسندة جسدها على أحد أعمد الإنارة تنظر إليّ بابتسامة بريئة وهي تلمحني أغدق العطاء لزميلاتها ممن اندفعن لسيارتي.

أثبت عينيّ عليها، ملامح وجهها البريء تذكرني بـ "روفان" أختي الصغيرة التي لم أعد أعرف عنها شيئًا منذ سنوات بعيدة، تحديدًا منذ أحد عشر عامًا حينها كنت أبلغ من العمر عشر سنوات ذهبنا مع أمي ليلًا إلى أحد متاجر الملابس لإحضار ملابس صوفية تناسب الشتاء، خرجنا من المنزل ثلاثة أنا وأمي والصغيرة "روفان" لكن عدنا إليه اثنين فقط فـ فروفان لم تعد إليه أبدًا حتى هذه اللحظة رغم أننا لم ندخر جهدًا في البحث عنها.

أذكر آخر كلماتها المُتلعثمة بأنها ترغب أن تقتني هذا الفستان فأخبرتها أمي بأنها ستقتنيه لها إذا جلست هادئة ولم تتصرف كالأطفال الأشقياء وبالفعل جلست روفان إلى جانبنا في بداية المتجر قرب الباب الرئيسي ورحتُ أتحرك مع والدتي لاقتناء ملابس مناسبة وقبيل أن نتحرك لحجرة تبديل الملابس انتبهت أمي لغياب الصغيرة وانشغالها الطويل عنها فتحركت بلهفة إلى حيثُ تركناها منذ دقائق لكننا وجدنا دمية روفان قد تحطمت إلى نصفين وملقاة على الأرض.

وفزعت أمي بغير شيء يدعو إلى الفزع في بداية الأمر وراحت تبحث عنها كالمجنونة وتنادي باسمها بصوت عال، وتوقف الناس في المتجر عن الشراء وتبرعوا بالبحث عن الصغيرة التي اختفت فجأة رفقًا بالأم المكلومة التي تنادي على ابنتها بصوت جريح وبصريخ لم يُفهم منه شيء سوى أن هذه الأم ستجن إن لم تعثر على صغيرتها في الحال.

وبالفعل جُنت ماما، كانت تذهب كل يوم إلى المتجر لتبحث عنها بنفس فزع واندفاع الصدمة الأولى وكأنها فقدتها للتو، وتحولت حياتنا من النقيض إلى النقيض الآخر، والد ورب أسرة يبحث عن صغيرته بكل طريقة وفي كل اتجاه لكن كل مساعيه في النهاية تبوء بالفشل وأم طيبة عاقلة تفقد جزءً من عقلها فلا يعود إليها أبدًا، تذهب إلى حجرة الصغيرة فتحدثها وكأنها معها في داخل الحجرة، أو تذهب إلى المتجر فيضيق أصحابه بها ذرعًا لكنهم يحتملون كل ما تقوم به لأن والدي كان يعوضهم عن ذلك.

أما أنا فأجلس وحيدًا في غرفتي أتذكر "روفان" الصغيرة التي ما آنسني أحدٌ طوال حياتي مثلما كانت تؤنسني هي، أسألها تحبين مَن فتخبرني أنها تحبني كأكثر إنسان تعرفه، وأحادثها حديثًا طفوليًا بريئًا فتبادلني بحديث أكثر براءة منه تطلب مني حلوى فآتيها بضعف ما طلبت وتسألني بعض ألعابي فأكاد أمنحها ألعابي كلها حتى تأتي أمي في نهاية الجلسة لتعيدها إلى حجرتها لكنها ترغب أن تنام في فراشي أنا فأحققُ لها ما طلبت.

أنا أيضًا كدت أجن في الأيام الأولى لغيابها، ولطالما صبرت نفسي بأن

والدي الذي ينجح في كل أمر لن يعجزه أمر عودة "روفان" لكنه عجز، أذكر يوم أن ذهبت خلسة إلى المتجر ذاته فاقتنيت لها الفستان الذي رغبت باقتنائه قبيل اختفائها ولا زلت أحتفظ به داخل خزانتي حتى هذه اللحظة علها تعود ذات يوم فأمنحه لها، أذكر يوم أن دسستُ جميع ألعابي في صندوق وضعته أسفل فراشي لأنني حرمت على نفسي اللعب حتى تعود "روفان" لكنها لم تعد فلم أمّس ألعابي حتى هذه اللحظة، أذكر أنني كنتُ أبكي قبيل النوم كل ليلة لأنني أذكر بكاءها الطفولي حتى تنام معي وتمنعها عن الطعام الذي اختصتها أمي به لأنها ترغب بطعام كطعامي، وصوتها الطفولي البريء الذي ما زال صداه في أذني لأنها كانت تمضي أكثر وقتها معي بناء على رغبتي.

قطع شروده فجأة أصوات تنبيه السيارات بالخلف، أنيرت الإشارة بالضوء الأحمر وهو لا زال غارقًا في ذكرياته القديمة التي أججتها برأسه رؤيته للصغيرة الجالسة على الرصيف هناك، فألقى تجاهها نظرة أخيرة لكنه لم يجدها.

في اليوم التالي لا يعرف ما الذي دفعه للمرور بذات الشارع الذي رآها بالأمس فيه رغم أنه كان أبعد ما يكون عن وجهته، بحث عنها سريعًا بعينيه لكنه لم يجدها فسأل عنها طفلة قد اندفعت في الدعاء له بغية أن يمنحها بعض المال فلم تجبه لأنه لم ينجح في تحديد الطفلة التي يقصد.

في اليوم التالي وفي اليوم الذي يليه وفي كل يوم بعده حتى مل المرور من هذا الشارع الذي أرق خاطره المرور به وأعاد ذكرى روفان على سطح

ذاكرته بعد أن ظن أن قلبه المعذب بفقدها قد هدأه الزمن وربت عليه مرور الوقت فقرر ألَّا يمر من هنا ثانية حتى لا تؤجج نيران صدره رؤيته للصغيرة شبيهة روفان.

بعد أسبوع كان يقف أمام قبر والداته التي لم تحتمل فقد روفان فرحلت بعد غيابها بثلاث سنوات فقط قضتهم كلهم في عناء وتخبط وهذيان ونصف جنون، ما زال يذكر يوم وفاتها وكأنه بالأمس يومها قبيل الوفاة بساعات قليلة ظلت تنادي على روفان حتى شعر وكأن الجدران ستشفق على نحيبها وتجيبها بدلًا عن روفان الغائبة، جلس إلى جانبها وراح يتلو بعض آيات من القرآن الكريم يهدئها بها رغم أن عمره حينها لم يكن يتجاوز الخمسة عشر عامًا.

يذكر أنه أقسم لها بأنه سيعيد روفان إلى أحضانها ذات يوم لكن والدته رحلت قبل أن تعود روفان أبدًا، يذكر ابتسامتها المختلطة بالدموع عندما أقسم لها بأن الله لن يخذل كل مساعيهم ولن يذهب كل جهودهم سدى لكن كل المساعي خابت في النهاية.

قبيل الوفاة بدقائق كانت تطلب من أبيه ألا يمل البحث عن روفان وأن يبذل كل ماله في سبيل ذلك إذا لزم الأمر، ويذكر أيضًا وصيتها له بأن ينشأ دارًا لرعاية الأيتام وأطفال الشارع لعل الصغيرة أصبحت بعد اختفائها واحدة منهم.

يذكر آخر عناق وآخر قبلة والتي طلبت منه الأم المكلومة أن يوصلها

إلى روفان عندما يجدها، انحدرت دمعة من عينيه فور إحساسه أن أذرع والداته ما زالت تحيط به وأن أنفاسها الملتهبة بالدموع وقتها ما زالت تلهب وجهه، أنهى دعائه لساكنة القبر في هدوء وروية بعد أن حسم أمره، لِمَ لَمْ ينفذ وصية والدته حتى هذه اللحظة، لِمَ لا يسعى جادًا بإنشاء دار رعايةَ للأيتام وأطفال الشارع عسى أن تكون روَفان واحدة منهم! ابتسامة قهر ارتسمت على شفتيه، روفان الحبيبة لو كانت على قيد الحياة فعمرها الآن لا يقل عن اثنين وعشرين عامًا!

يا رب لا تجعل أيامي تنقضي في محاولة تحقيق أحلام مستحيلة، ولا تجعل حياتي تضيع في محاولة التأقلم مع واقع لا أحبه، يا رب لا تُذهب عمري سدى وأنا من يدعوك دائمًا أن أكون إنسانًا ذا جدوى، وأسألك ألَّا تصرف أيامي هباء وأنا من يرغب حقًّا بإصلاح نفسه، وألَّا تسألني عن عمري فيما أفنيته فأجدني قد ضيعته كله عبثًا.

"دار غِرَاس" لرعاية كل طفل بحاجة للعون وللرعاية، اليوم كان أول يوم عمل رسمي له بالدار التي كان يسعى لافتتاحها منذ أيام ليست بالقليلة، انتدب للعمل بها معلمات على قدر من الأخلاق والكفاءة، كان ينتقي كل واحدة منهن وكأنها ينتقيها للتعامل مع روفان وليس مع أطفال لا تربطه بهم علاقة سوى أنه راع لهم بوصية من أمه الراحلة منذ سنوات.

أيام طويلة قضاها في البحث عن شبيهة روفان، يرغب جادًّا أن يكفلها وأن يوفر لها سبل العيش الآمن والتعليم الجيد إكرامًا للعزيزة الغائبة منذ

سنوات، روفان العزيزة التي كلما أخذه الحنين إليها احتضن ملابسها خصيصًا فستانها الأخير الذي لم تلبسه أبدًا وكلما شعر بحاجته للبكاء أمسك بنصف لعبتها المحطمة التي عثر عليها بعد اختفائها بدقائق، لكن كل هذا لم يروِ ظمأه، تُرى أين أنتِ يا روفان الآن أما زلتِ على قيد الحياة أم أنكِ رحلتِ منها؟ تُرى هل تم اختطافك فعلًا أم أنك اختفيت بمحض الصدفة، تُرى هل احترفت التسول كما كل الأطفال المخطوفين أم أنه تم التخلص منك والإتجار ببعض أعضاء جسدك؟

يجلس خلف مقود سيارته بنفس الشارع كالعادة تعبث أصابعه بلعبة روفان المحطمة، تداهمه عشرات الأفكار التي أدت بوالدته إلى الجنون ثم الموت وتدفعه هو الآخر للجنون الآن، يعلم أنَّ هذه الحياة دار بلاء لكنه بلاءه صعب، ليتها ماتت وهي صغيرة ودفنها بيديه، ليت النيران المشتعلة بصدره الآن قد أطفأها تذكره أنها تركض حول سيدنا إبراهيم بين أطفال ونساء الجنة فيهدأ قلبه ويرضى خاطره، على حين غرة تلمح عينيه شبيهة روفان فيضع اللعبة بجيب بنطاله ويهبط سريعًا من سيارته غير عابئ بتركها له في منتصف الشارع يرغب أن ينادي على الصغيرة التي تقتحم الزحام على بعد أمتار منه فلم يجد اسمًا يناديها به سوى روفان.

والعجيب أنها تلتفت بسرعة البرق إليه، وتنظر إليه مستفهمة ومندهشة جراء نداءه ومعرفته باسمها، سيارة حمقاء طائشة تصدمه خلال ركضه إليها يرتمي على الأرض على بُعد أمتار من السيارة التي صدمته تركض هي الأخرى إليه تفترش الأرض بالقرب منه تربت بكفها الصغيرة على وجهه

الملوث بالدماء، بلسان ثقيل ونظرات زائغة يطلب منها ألَّا ترحل وظل يردد بصوت متقطع أنا خالو يا روفان لا تتركيني حتى أفيق.

تجلس وحيدة أمام باب غرفته بالمشفى، يأتي لزيارته الكثير من الرجال ذوي المراكز المرموقة فيكاد الواحد فيهم أن يزيحها عن طريقه بقدميه، تسألها مديرة دار الرعاية عن ماهيتها فتجيب الصغيرة بأنه خالها كما أخبرها قبيل إغمائه، تضحك المرأة سرًا وتظنها إحدى أطفال الشارع ممن قام بالإحسان إليهم من قبل، فتحاول أن تأخذها معها إلى الدار لكن الصغيرة تأبى.

تسألها المرأة عن اسمها فتخبرها بأنها تسمى روفان فتلمع على الفور في ذهنها حجرة روفان المغلقة منذ افتتاح الدار، تسأل الفتاة عن أهلها فترد روفان بأن والدها رحل قبل أن تولد وأن أمها ترقد مريضة بالبيت، تسحبها المرأة من يديها لا بد من إحضار الأم المريضة خاصة بعد أن تعالى أنين الراقد بغرفة العناية باسم روفان الغائبة منذ سنين.

تصل المرأة إلى بيت أقرب إلى الخراب منه إلى البيوت، وتطلب منها روفان الصغيرة أن تدخل فتخطو المرأة إلى داخل البيت بخطوات متوجسة ويتناهى إلى مسامعها أنين سيدة البيت الذي يتوقف بمجرد أن تلتقي عينها بعين السيدة المريضة، تسألها مديرة دار الرعاية عن اسمها لكن السيدة تعجز عن الإجابة وتفقد وعيها.

بعد أقل من ساعة تجلس "روفان" أمام غرفتين إحداهما ترقد بداخلها ماما والأخرى يرقد بها الرجل الذي يدعي أنه خالها، والذي يرسل أيضًا

في طلبها بمجرد أن يفيق فتخبره الطفلة على الفور أن أمها ترقد بالغرفة المجاورة، ينظر لها نظرات طويلة يتخيل فيها أنَّ روفان الصغيرة هذه ابنة روفان الحقيقة فينتبه من شروده على نداء الصغيرة وهي تمد يدها له بلعبة حمراء سقطت من جيبه فضاع نصفها الآخر خلال الحادث.

يسأل عن صحة المريضة التي ترقد بالغرفة المجاورة له فيجيبه الأطباء بأنَّ حالتها لا تسر، فيغادر فراشه متكئًا على الحائط، تمسك يده بأصابع الصغيرة فيحاول الطبيب منعه من الحركة إلَّا أنه لم يستجب.

تستفيق المريضة بمجرد رؤيتها لابنتها أما هو فيجلس قرب الفراش يخشى أن يسألها من تكون فتقتل إجابتها آخر أمل لديه، تريها الصغيرة اللعبة الحمراء فتلمع في ذهنها صورة اللعبة عندما منحها لها طفل صغير يكبرها بأعوام قليلة تحاول جاهدة تذكر وجهه أو أي شيء عنه لكن ذاكرتها المرهقة تعجز عن الوصول لشيء باستثناء أن هذه اللعبة كانت يلتصق بها جزء آخر لونه أبيض.

تسأل صغيرتها لعبة من هذه؟ فتجيب الطفلة منحها لي خالو عاصم فتظهر في رأسها صورة عاصم الصغير وهو يمنحها اللعبة في غرفته منذ أيام بعيدة تنظر في صدمة إلى الرجل الجالس في تعب حقيقي إلى جوارها ينظر لها شاردًا بعين قد امتلأت بالدموع وأخرى قد غطتها ضمادة، تسأله أنت عاصم؟

- وأرجو أن تكونين روفان؟

تسأله أين نصف اللعبة الأبيض فيجهش بالبكاء، يحاول أن يذكرها بنفسه فتطفو على سطح الذاكرة كل حدث ذكرها بها وحاولت الخاطفة حذفه من عقلها قديمًا فنسيت كل شيء عدا اسمها "روفان" إنها روفان فعلًا قد عثر عليها أخيرًا بعد أن ظن ألَّا لقاء سيجمعها أبدًا، يعانقها عناقًا حارًا فتمسك بيديه تضع بينهما يد ابنتها الصغيرة ثم تغيب عن وعيها مجددًا يرفع بصره للسماء يستلهم ربها الرحمة وأن يمد في عمر المريضة فلا يفرقهما شيء أبدًا.

(5)

- طَـــلقـــني!

في البداية ظننتها تمزح أو أنها تحاول جادة أن تستفز مشاعري الباردة دائمًا على حد قولها إلَّا أن صوتها الساكن على غير العادة ودموع صامتة على خديها أفهمتني أن بالأمر خطب ما.

- سلمى، ماذا هناك؟

أطلقك هكذا فجأة رغم أننا نتشارك احتساء القهوة ورغم أننا أنهينا طعامنا معًا منذ دقائق ورغم أنني ولأول مرة منذ عامين أطلب منك أن نجلس سويًّا في الشرفة لنتحدث مثلما كنا نفعل مُسبقًا قبل أن تتعبني هموم وأعباء الحياة!

بعد ليلتين من إعلان الحرب الباردة بيننا اكتشفتُ أن "سلمى" تسعى الآن للطلاق لأنها تشعر أنها كذلك منذ مُدة بعيدة!

تحديدًا منذ أن بَهتَت صورتها في عيني فلم أعد منبهرًا بها، ومنذ أن اختفى الحب بيننا فحل محله البرود والملل -على حد قولها- ومنذ أن نسيتُ أنها زوجتي وبيتي فأصبحت أتصرف وكأنني نَزيلٌ في فندق!

"سلمي" التي لم تشتكي أبدًا تعاتبني الآن لأنني لم أذهب لزيارة أخيها الوحيد عندما بُترت قدمه منذ ثلاثة أعوام فذهبت مرارًا لزيارته وحدها..!

وتذكرني برحيلي المُبكر يوم وفاة والدها رغم أنها كانت تنتظر عزائي لها بشكل خاص بعد الوفاة..!

"سلمى" التي تكره العتاب تعاتبني جادة لأنني لم أبارك نجاحها بإحدى دروس الإنترنت منذ ستة أشهر! وتحدثني مطولًا عن خيبتها يوم أن سكبت على نفسها قهوة الصباح الساخنة التي كانت تعدها لي فنسيتُ الأمر ولم أطمئن عليها أبدًا.

تخيلوا أن "سلمى" الرصينة العاقلة تخبرني الآن أنها مستاءة لأنني لم أرسل لها رسالة معايدة في العيد الماضي رغم أنني كنتُ أرسلها للجميع، ولم أمنحها مصروف العيد رغم منحه لكل الأطفال حولي!

"سلمى" التي لم أشعر بغيرتها أبدًا تخبرني أنها لن تنسى اهتمامي باتصالات زميلتي في العمل رغم أنني قد أتجاهل اتصالات زوجتي مرارًا، وتشرح مدى خيبتها لانشغالي عن مشاركتها مناسبات أسرتها رغم أنها تحرص أن تكون أول الحاضرين بمناسبات عائلتي.

سلمى الآن تشرح لي كم انتظَرتْ أن نتحدث سويًّا قبيل النوم كل ليلة إلى أن مَلّت فاستبدلت أحاديثي بأحاديث صديقاتها، وتخبرني أنها لطالما انتظرت أن أثني على أكلاتها الهندية التي تعلمت طهويها خصيصًا لأجلي لأنني أعربت عن رغبتي بذلك ذات يوم إلَّا أنني كالعادة لم أنتبه.

"سلمى" تخبرني الآن أنها بحاجة لزوج يَتفهم مشاعرها، يبادلها الحديث ليلًا، يُصر على أن يتناولان معًا طعام الإفطار صباحًا، يقدر حاجتها للمشاركة فلا يتركها فريسةً للوحدة، وحاجاتها الجادة للأمان فلا يدع الخوف يلتهمها وحدها، ويَتفهم ظروف المجتمع حولها فلا يجعلها تواجههُ بنفسها وكأنها بلا زوج!

سلمى تحكي لي الآن سباق الركض ليلًا الذي كان يجمع رسول الأمة بـ "عائشة" رضي الله عنها رغم انشغاله بكل أعباء النبوة، وتخبرني عن عظيمًا اسمه "عُمر بن الخطاب" كان يقول "إني لألعب مع زوجتي كالطفل فإذا جَدَّ الجدُّ وجدتني رجلًا".

سلمى لم تعد تلتمس لانشغالي العذر لأنني مهما كَبُرتْ مشاغلي لن تكون كأعباء نبي، ومهما تعاظمت هموم الحياة حولي فلن تكون كهموم رجل أُطلِقَ عليه مُحطم الإمبراطوريات وهازم الفرس.

- "العتاب لا يُؤجل"..

سلمى التي ألتمسُ لها العذر دائمًا أُعَاتبها الآن لأنها لم تخبرني باحتياجاتها على مدار شهور، وأتحجج عن إهمالي لها بأنها آثرت الصمت بدلًا من إعلان حاجتها للكلام، ولم تلفت انتباهي لشيء يسيئها فيّ لأحاول جاهدًا تصحيحه كيلا أسيئها، سلمى بَخلت أن تكون واضحة في مشاعرها حتى ماتت هذه المشاعر البريئة وانساقت خلف دعاوى وهمية غبية بأن الاهتمام لا يُطلب فجاءت تطلبه مني قبيل طلاقنا!

"العتاب لا يُؤجل.. والمشاعر لا تُناقش.. والاهتمام يجب أن تُعلَنَ الحاجة له خصيصًا بين الأزواج"..

ولن أطلقك يا سلمى قبل أن يمر علينا عيد جديد فلا أعايد فيه أحدًا غيرك، وقبل أن أعتذر منك على قهوة الصباح التي نسيت أن أعتذر لك عنها

منذ سبعة أشهر فإما أن تقبلي اعتذاري وإما أن أسكبها ساخنة على نفسي جزاءً وفاقًا.

لن أطلقك قبل أن أعزيك في وفاة والدك من جديد ثم أقسم لك أنكِ الآن تَملكين زوجًا بطيبة ورحمة والد، وقبل أن أعيد كل الزيارات التي تحججتُ بعملي عنها فتركتك تقومين بها وحدك.

وقبل أن ننهي كل الأحاديث فتطلبين مني أن أصمت لأن الصداع كاد أن يلتهم رأسك، وقبل أن نطهو معًا كل الأصناف الهندية ثم أخبركِ جادًا بأنني أشتهي أن آكل شيئًا آخر.

لن أطلقك قبل أن نركض معًا ليلًا فكما قلتِ أعبائي ليست كأعباء نبي أو أن أتلطف معك كما تريدين فلستُ منشغلًا بتحطيم الإمبراطوريات وإنزال الهزائم بالفرس.

(6)

"ريما".. أصدقُ صديقاتي وأقربهم إليّ، حنونة وطيبة وكاتبة ناجحة ومحبوبة جدًّا، قضينا كل سنواتنا معًا جيرانًا في نفس الحي، وتشاركنا سويًّا طفولتنا وصبانا وشبابنا حتى تزوجتُ أنا منذ عام وسافرتُ مع زوجي إلى بلدٍ آخر، وكانت هذه أول مرة أفترق فيها عنها.

نشبت المشاكل بيني أنا وزوجي بعد زواجي بأشهر قليلة، ولم يكن لي مأوى أو سكن سوى مكالمات "ريما" الهاتفية، كنتُ أبثها كل أحزاني، وأبحث معها عن حلول لكل مشاكلي، حتى جاء ذلك اليوم الذي هاتفتها فيه مرارًا ولم ترد ورغم قلقي الجامح عليها إلَّا أنني سخطتُ على تصرفها غير المُبرر هذا.

بعد أسبوع واحد ودون مقدمات تركت لي رسالة تقول فيها "لن يتألم أحد بدلاً عنكِ، مشاكلك بسيطة حاولي حلها بنفسك!"

أعدتُ قراءة الرسالة مرارًا لم أفهم ماذا حدث ولا لِمَ رحلت ريما هكذا دون سبب، بكيتُ كما لم أبكِ من قبل، كان هذا اعتراف وَاضح وصريح بأنها قد مَلتني وسئمت شكواي لها فتخلت عني للأبد، لم تراعي نفسي المتعبة ولا مشاكلي المميتة ولا غربتي القاتلة، كان بعدها عني آخر ما توقعته منها لكن غدرها بي فاق كل توقع!

تمنيتُ لها الخير وابتعدتُ عنها رغم حاجتي الشديدة لكلامها الهادئ الجميل كعادتها، لكنني ما أهملتُ يوماً مراقبة حسابها الشخصي على الفيس بوك!

لا أدري لِمَ أهملته هو الآخر لدرجة أن متابعيها يسألون عنها كل يوم، ويكتبون على حائطها أنهم قد اشتاقوا كتابتها وافتقدوا وجودها بينهم، قلتُ في نفسي، لعلها تخلت عن الكتابة أيضًا، إنها غادرة لا تؤتمن تخلت عني وقد كنت أقرب الأقربين لها!

ولأول مرة منذ عام ونصف تعود ريما إلى حسابها الشخصي وتضع منشورًا كتبت فيه "حملة إهداء قصة مصورة لكل طفل مصاب بالسرطان، وإهداء كتاب -ليتك تصبر- لكل شابٍ أُصيبَ به سأتواجد بنفسي في المشفى في الجمعة القادمة!"

عَبَّرَ الآلاف عن افتقادهم لها، وعن فرحتهم أنها لا زالت على قيد الحياة، بعد فقد الجميع الأمل في ظهورها مرة أخرى، ووعدوها بالحضور في اليوم ذاته.

في تلك الفترة طُلقت من زوجي، وعدتُ إلى وطني، قررت حضور مبادرة "ريما" في محاولة للخروج من غيبوبة طلاقي، اقتنيت الكتاب وبعض القصص المصورة وكتبتُ فيها إهداءات جميلة عن الصبر والرضا وتحمل البلاء، وفي اليوم المحدد لفت نظري وجود الآلاف هناك من محبي القراءة ومتابعي ريما، كلهم في انتظار ظهورها وتواجدها بينهم في أقرب وقت، كنتُ واحدة منهم في انتظار وصول ريما الغادرة بثوبها الأزرق الفاتح الذي ترتديه دائمًا في مناسباتها المهمة.

ازدادت دقات قلبي مع اقتراب عقارب الساعة من الوقت الذي حددته

لوصولها، لكن شطر قلبي نصفين اقتراب فتاة نحيفة شاحبة الوجه بلا شعرة واحدة في رأسها يسكن الليل تحت أجفانها تشبه "ريما" تمامًا لكنها لم تكن ريما التي أعرفها، وترتدي فستانًا أسود يوحي بأن صاحبته قد جمعت كل محبيها هنا لتلقي عليهم نظرة أخيرة قبيل رحيلها عنهم.

دققتُ النظر فلم تكن إلَّا ريما نفسها، صرختُ واخترقتُ زحام الواقفين وارتميتُ في أحضانها عاتبةً عليها إخفاء أمر مرضها عني لكنها هتفتْ في بكاء مُتحشرج "لم أشأ أن تزيد مشاكلك واحدة، فأخفيتُ عنكِ خبر إصابتي به!"

– التمسوا لأحبتكم عذرًا واحدًا من سبعين عذر، فنحن في زمن أُرهِقت فيه الأرواح، وتَحَطمت فيه القلوب، وأُنهِكت فيه الأفئدة دون سابق إنذار، ورعى الله أكتافًا من فرطِ ما نتكئُ عليها ننسى أن لها أيضًا تعب.

(7)

جلستُ في ردهة الانتظار بعيادة طبيب الأسنان، لا أتذكر الوقت تحديدًا لكنني أظن أننا كنا في ساعاتِ الصباح الأولى، المعطف الثقيل الذي كنتُ أرتديه حينها لم يمنحني الدفء المناسب فوضعت يديّ بجيبي بعد أن حككتهما ببعضهما لفترة طويلة، وسرحت عيناي في وجوه الحاضرين.

خمسةُ أفراد يتناثرون بمقاعدهم على أطراف الردهة، رحتُ أتأمل ملامحهم، تُرى ما القصة التي يحملها كل منهم بداخله؟!

وبعد دقائق قطع دخول أحدهم المفاجئ شرودي، رجل مسن لكنه لا زال يحتفظ بقوته، لم يكن مظهره عاديًّا أبدًا لو تأملتَ وجههُ لشعرتَ أنه يحمل بداخله شيئًا ما.

لم يتحدث مع أحد، جلس قبالتي فرحتُ أتأمل ملامحه هو الآخر، وجهٌ ساكن ويدان ترتجفان قليلًا وقميص صيفي لا يتناسب أبدًا مع المطر المتساقط بالخارج، وحذاء متهالك قد احتفظ داخله ببعض الماء، ولوهلة زجرتُ نفسي لأنني تفحصت الرجل بكل هذه السخافة فأبعدت عينيّ عنه، لكنهما رغمًا عني عادتا للنظر إليه بعد دقائق، فلمحته وهو يخرج كومة أوراق من جيبه يجمعها رباط مهترئ ويخرج من بينها مبلغًا من المال وراح يعده في هدوءٍ وتأنٍ وبلا وعي أيضًا وجدت نفسي أحسبُ المال معه.

سبعونَ جنيها، عدها مرتين متتاليتين ثم هبَّ واقفًا وراح يتحدث هامسًا مع مساعدةِ الطبيب هل السبعون جنيهًا كافية لعلاج أسنانه؟ لكنها أجابت لا.

جلس الرجل ليتفحص أوراقه ثانيةً وأخرج من بينها خمسة جنيهات أخرى وراح يحسب أمواله للمرة الثالثة على التوالي، وبلا وعيٍ أيضًا وجدتُ نفسي أنظر نظرة سريعة لـمئتين جنيه كانت في يدي واتجهت بها صوب الرجل قائلةً بعد أن انحنيت على الأرض وكأنني ألتقطها منها: هذه مائتان جنيه سقطت من أوراقك.

فأخذها دون أن ينطق، وعدت إلى مكاني أستعيذ بالله من قهر الرجال، وإذا به يأتي إليّ ويجلس جانبي وقد تصلبت ملامح وجهه متسائلًا: ما اسمك؟

فأجبته: اسمى سُهى.

بعد ثوان من الصمت أردف:

لقد مات ولدي الوحيد منذ شهر واحد.. مات غريقًا في إعصار دانيال بـ "ليبيا".

لم تسعفني الكلمات بردٍ مناسب فصمتُّ، فأردف:

ليست المشكلة أنه مات الحمد لله على قدره لكن لقد انتظرت حضوره لسبعة عشر عامًا.. سنوات طويلة من العقم والعلاج والأطباء وأخيرًا رُزقنا به وعندما أتم عامه السابع والعشرين ذهب إلى خالقه مغتربًا في وطن غير وطنه دون أن نعانقه أو حتى نلقي عليه نظرة وداع!

– البقاء لله.. لا أجد كلامًا مناسبًا لكنه سبقك إلى الجنة إن شاء الله.. لقد رحمه الله من سعير هذه الدنيا فأنهى رحلته سريعًا إلى الجنة، أتمنى أن تعتبرني ابنتك.

- تأتين إلى هنا كثيرًا؟

- مرة بداية كل شهر.

"بعد هذا اللقاء بأربعة أشهر.. "

- آه، كيف حالك سيدي؟.. أخيرًا أتيت، انتظرتُ حضورك في كل مرة أتيتُ فيها إلى هنا.

- لم آتِ إلى هنا منذ ذاك اللقاء إلَّا الآن.. حدثت زوجتي عنكِ، امرأة طيبة أخذ منها الحزن مأخذه.. كلما ذكرناك قالت لو كان ابننا لا زال حيًّا لزوجناه لك.

- يا ليت، أتمنى أن أراك ثانية..!

"بعد شـــهـــرين.."

قالت مساعدة الطبيب: لقد ترك لك "..فلان.." هذه المائتين جنيه أول أمس، قال إنه أحبك كابنته، وهذا رقم هاتفه، إن زوجته ترغب في محادثتك.

بأصابع مرتجفة ضغطتُ على الأرقام، وأخيرًا جاء الصوت جريحًا من الجانب الآخر بأن صاحب هذا الهاتف مات أول أمس.

- أول أمس.. بعد أن رد المائتين جنيه!

- عفوًا؟!

- هل من الممكن أن أحدث زوجته؟

- لقد توفت بعد دفنه بسويعات قليلة.. من أنتِ؟

- ابنته.

- نعم..! إن عبد العزيز أخي لم ينجب سوى "خالد" رحمه الله.. رحمة الله عليك يا أخي يا حبيبي لم تترك في هذه الدنيا من يتذكرك ويدعو لك.

- لا لا لقد ترك، تأكدي بأنه قد ترك ابنة خلفه رغم أنها لم تره سوى مرتين.

(8)

لم أكن على قدرٍ عال من الجمال، كنت فتاة عادية جدًّا أو أقل من العادية، ولعلك لا تفهم أن الجمال هو مشكلة كل أنثى والحلم الوهمي الذي تسعى دائمًا للوصول إليه، عينان سوداوان وشعر أسود مجعد وأنف أطول من اللازم، فم متوسط، وبشرة خمرية مائلة للبياض الباهت.

اسمي علياء لكنني في الحقيقة متواضعة في كل شيء، فكما يقول الناس لا مال ولا جمال ولا حسب أو نسب، أبي رجل بسيط يعمل سائقًا على إحدى عربات الأجرة التي لم يكن يملكها، لكنه كان يقتسم العائد المادي مع صاحب العربة في نهاية كل يوم، أبي رجل طيب وأمي كذلك، امرأة ريفية مكافحة وشريفة تقف مع زوجها جنبًا إلى جنب، تجمع اللبن والبيض من نساء القرية كل مساء، وفي الصباح الباكر تذهب إلى المدينة كي تبيعه لأهل المدن، منهم من يمنحها جنيها زائدًا عن حقها، ومنهم قليل الذوق شحيح الكرم الذي يقطع أنفاسها في محاولة تقليل الثمن جنيه أو جنيهين غير مُقدر لما تعانيه هذه المسكينة من شظف العيش وتدني المستوى.

كنت أحمل معها حاجيتها كل صباح لأوصلها إلى مكانها المعتاد بالسوق، من ثم أتجه إلى جامعتي بثيابي البسيطة، وهيئتي العادية جدًّا، على كلٍ كنت مطمئنة بخصوص مسألة زواجي فـ "عادل" جارنا يحبني ولطالما حادث أمي بأنه ينوي أن يتقدم لخطبتي بمجرد أن يجمع مبلغًا معقولًا من المال يُمَكِنَّه من الزواج بي.

يومًا ما ومن دون سابق إنذار تعرض أبي لحادث فظيع كانت ضحيته روحه الطاهرة، ومن دون مقدمات تركنا أبي دون وداع أو استعداد للحياة من دونه، لم تحتمل أمي الصدمة وأصيبت بالشلل التام، وفجأة وجدت نفسي أمام المدفع وأصبحت العائل الوحيد لأسرتي، لأمي المريضة ولأخي الصغير ولنفسي.

قررت أن أترك الجامعة على الأقل هذا العام، لكن حلمًا بعيدًا بالتخرج كان دائمًا يراود أبي جعلني أتراجع عن قراري رغبة في تحقيق أمنيته بأقرب وقت، وبعد تفكير طويل، قررتُ إكمال الرحلة والبدء من حيث انتهت أمي، من الغد سأجمع أنا البيض والجبن واللبن وسأذهب به إلى السوق وسأحاول جاهدة بيعه ثم الذهاب سريعًا للجامعة لإكمال ما يمكن إكماله!

بعد يومين كنت أفترش أرض السوق وأمامي حقائب بها بعض زجاجات اللبن وقطع الجبن والقليل من البيض، وبحجري كتاب عنوانه "الإحصاء التطبيقي" يشرد بصري بين سطوره، أقرأ الكلمات ولا أعي منها شيئًا!

وبعد دقائق كان عادل بقامته الطويلة يقف متلعثمًا أمامي، وجهه محمر وأعصابه مشدودة أدركت أنه يريد أن يقول شيئًا ما، وأخيرًا استجمع شجاعته قائلًا:

– علياء، أنا آسف أمي رفضت أمر زواجي منك رفضًا تامًا، قالت إنها لن تقبل أبدًا أن تزوجني من بائعة اللبن!

قلت له في صدمة وبصوت مبحوح:

– وما الذي يعيب بائعة اللبن! إنها تكافح من أجل أخيها اليتيم ووالدتها المريضة!

لم يرد، ولاني ظهره وانصرف، بكيتُ في هذا اليوم كما لم أبكِ من قبل، لعنت الظروف والفقر والمرض، في الحقيقة كنت أتحمل رحيل أبي أما رحيل "عادل" كنت أضعف من أن أتحمله!

بعد هذه الحادثة بأسبوع، تم طردي من المحاضرة، المعيد الغبي لم يحتمل فكرة أنني لم أقتنِ الكتاب حتى الآن ونعتني بـالمستهترة، لم أنجح في إخباره أن الفقر هو السبب خرجت من المحاضرة باكية وقررت أن أترك الجامعة بلا عودة!

وفي اليوم التالي كنت أفترش أرضية السوق وأمامي حقائب بها بعض زجاجات اللبن وقطعا من الجبن وقليل من البيض، وبعد قليل من الوقت فوجئت بذلك المعيد القاسي يقف أمامي ويديه خلف ظهره، يبدو أن بهما شيئًا يحاول إخفاءه، تلقائيًّا غطيت وجهي بوشاحي ظنًّا مني أنه بالتأكيد سيتذكرني إن رأى وجهي فآثرتُ إخفاءه، لكنه ضحك ضحكة طويلة ثم هتف:

– أيعقل أن يخجل المكافح من كفاحه؟!

ثم أخرج شيئًا من وراء ظهره وهو يهتف:

– هذا هو الكتاب الذي قمتُ بطردك بالأمس لأجله، ومعه كل الكتب التي تحتاجينها، لم أقصد إهانتك ظننتك فتاة لعوب مستهترة، وأكره هذا الصنف من الفتيات، أيمكنك أن تقبلي اعتذاري؟! فبكيتُ.

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة، كنت راضية عن الفقر والظروف والمرض، كنت معجبة بكفاحي ومؤمنة أن هذه هي معركتي التي خلقني الله لأجلها، وجاء المعيد وبدأ محاضرته قائلا:

- لم أكن مرفهًا يومًا ولم أولد وبفمي ملعقة من ذهب، في وقت مضى كنتُ عاملًا باليومية، وسائق تاكسي، وسباك. وكثيرًا كثيرًا ما نمت وأنا جائع! ثم أتبع:

-أحببتُ أن أشارككم جزء من قصتي.

في قرارة نفسي كنت أعلم أنه يخصني أنا بهذا الجزء، أنه يقصدني أنا من بين ألف طالب، فأحببت الحياة ورضيت عنها، ما زال في هذه الدنيا أناس طيبون لا يبخلون بالكلمة الطيبة ولا يحبسون الاعتذار في صدورهم!

وفي اليوم التالي وبينما أجلس بالسوق أمارس عملي، لأنه مصدر رزقنا الوحيد إذا به يقف أمامي ببذلته الأنيقة ورباط عنقه الجميل متسائلًا:

- كيف حال بائعة اللبن؟!

قلت: بخير.

- أظن أنها لم تعد تخجل من عملها!

- بل وتحبه، إنه قدر الله، كيف للمرء أن يكره قدر الله؟!

ومن دون مقدمات جلس على الأرض ببذلته الأنيقة إلى جانبي، وتعالى صوته، البيض والجبن واللبن .. من يريد؟ الزجاجة بثلاثين جنيهًا!

ضحكت من أعماقي، آمنت أن الخير يكمن في الشر، وأن الله ما انتزع منا شيئًا إلًا ليعوضنا بشيء أفضل منه، إن الله كريم!

في هذا اليوم أنهيت عملي باكرًا بفضل تصرفاته الجميلة ولفت أنظار المشترين، كيف لأنيق مثل هذا الشاب أن يبيع اللبن بسوق شعبي كهذا! وفي نفس اليوم بدأ المحاضرة بقوله:

– بالمناسبة نسيت أن أخبركم أنه يومًا ما إلى جانب عملي كسائق أو عامل باليومية أو سباك عملت بائعًا للبن!

بعد أيام قليلة كنت أُزف لأستاذي بالجامعة، إنه يحبني بفقري، بعبء أمي وأخي، بملامحي البسيطة والتي أشعر أنها لم تعد كذلك بالمناسبة، في الحقيقة أصبحت أحس أنني جميلة جدًا، أشعر أنني توهجت منذ أن أحبني الرجل الصادق!

أين ذهب عادل، وأين ذهبت والدته؟!

الحمد لله أن "عادل" قد تخلى عني من البداية، والحمد لله أنني طردتُ من الجامعة، الحمد لله على فقري، وممتنة جدًّا جدًّا لوظيفة بائعة اللبن، كل هذه الصعاب جذبتني مِن عنقي رغمًا عني لتضعني في طريق الرجل الصحيح، أكتب هذا المقال وهو يقرأ لي روايتي المفضلة بالمناسبة، إنه يحبني ولا يؤذيني ويدللني دائمًا، ويحب أن ينعتني دائمًا بقوله لي "يا ابنة بائعة اللبن"!

(9)

"هيثم المجنون"..!

هكذا يلقبه أهل الحي وهكذا ينادونه، الكل يتجنبه ويفرُ منه وينزعجون لمجرد التفكير فيه إلَّا أنا، كنت دائمًا أفكر به وأنزعج لو غاب ذكره عن ذهني للحظات!

دعني أخبرك القصة من البداية، رغم أنني لا أعلم صحتها إلَّا أن جميع أهل الحي يتداولونها هكذا.. الكل يُجمع على أنَّ "هيثم" المجنون هذا كان شابًا أنيقًا حسن الخُلق والخِلقة يدرس في كلية الطب إلى أن مرضت والدته بمرض خطير يحتاج علاجه لآلافٍ مؤلفة فاضطر الفتى لترك الجامعة لبعض الوقت بحثًا عن المال في محاولة رحيمة منه لتخفيف آلامها وتوفير مصاريف المعيشة له ولأخته الصغرى، والتي صدمتها سيارة طائشة عند عودتها من المدرسة ذات يوم فتوفيت على الفور!

هنا جن جنون الفتى وساءت حالته وفُصِل من عمله، وأخيرًا عندما أفاق من صدمته، لم يقبل به أحد عاملًا عنده سوى "ميكانيكي" الحي، وكالعادة كان الفتى دائم التغيب عن العمل لانشغاله بأمر علاج والدته، فما كان من صاحب العمل ذات مرة إلَّا أن قذفه بآلة حديدية في يده، ولم يتحمل "هيثم" الإهانة عندما لمح حفنات متواصلة من الدماء تسيل على خديه وجبهته، فما كان منه إلَّا أن أمسك بالرجل حتى كاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه لولا أن تدخل أهل الحي!

وزُجَ بهيثم إلى السجن محكومًا عليه بقضاء ستة أشهر فيه، وفي النهاية خرج منه مجنونًا بعد ما توفيت والدته ولم ينجح الفتى الطبيب في تشييع جنازتها أو حتى طبع قبلة أخيرة على رأسها!

- هيثم لا يكف عن نزع ملابسه في الحي، وطلب شطائر الجبن وقذف الحصى في وجوه المارة، فبات الجميع يضيق بتصرفاته إلَّا أنا كنت أبكي لها، كلما لمحته وهو ينزع ملابسه فيلعنه الناس ويقذفونه بالقاذورات أخذتني به الشفقة، ماذا لو كانت الظروف في صفه بدلًا من أن تكون ضده هكذا؟

كان من المفترض أن يكون طبيبًا ناجحًا وسيمًا يرتدي نظارة طبية ويملك بيتًا دافئًا وأسرة جميلة وسيارة، ربما كان يعالج أهل الحي -الذين يقذفونه بالحصى هؤلاء- مجانًا صدقة على روح أمه.

لا بد أن أساعده، ماذا لو كنتُ مكانه! بالتأكيد كنت سأحتاج لأن يأخذ أحدهم بيدي، قررت أن أمُدُ يد العون فإما أن أنجح وإلَّا فيكفيني أنني حاولت، لكن ماذا سيقول الناس عن فتاة تذهب إلى شاب عارٍ لتستره؟! بالتأكيد سيلعنونني أنا الأخرى، ليذهبوا إلى الجحيم، في النهايةً أمسكت شطيرة جبن في يدٍ وفي الأخرى قميصًا واسعًا واقتربت منه وسط ذهول الجميع لكنه اقتنص شطيرة الجبن من يدي وألقى بالقميص!

وفي اليوم التالي كررت ما فعلته بالأمس، لكنه كالعادة التهم الجبن وألقى بالملابس ولم أمل من محاولة ستره عسى أن يسترني الله يوم أن تنكشف عورات جميع الخلائق، وفي اليوم السابع سألني هيثم للمرة الأولى عن اسمي فأجبته "ليلى" فقال ألبسيني القميص ولا تنسى غدًا شرائح الجبن..!

ووسط ذهول الجميع وذهولي أنا أيضًا ساعدته على ارتدائه فطبع قبلة سريعةً على رأسي قائلًا لستِ "ليلى"، أنا أعرفك إنتِ " أروىٰ" أختي.. فبكيت.

الفتى يبدو أنه عاقلًا بحاجة لبعض التأهيل النفسي فحسب، لو تركت أمره لظل مجنونًا حتى آخر عمره ولو حاولت مد يد العون بمجهود أكثر ربما استرد عقله، لكن من أين لي بأموال علاجه ثم ماذا سيقول عني أهل الحي؟! ما لها وللمجنون، لن يتفهم المجتمع القاسي شفقتي عليه ورحمتي به، فهذه أمي قد ضاقت بتصرفاتي ذرعًا حتى باتت تنعتني أنا أيضًا بالمجنونة وأقسمت عليَّ أن أبتعد نهائيًّا عنه، قررت أن أبر قسمها فلهيثم ربٌ يرعاه ويشفيه.

تجنبت أماكن وجوده واعتزلتُ شرفتي نهائيًّا، ووَأدتُ كل خاطرٍ يأتي به إلى عقلي حتى سمعت طرقات سريعة على باب منزلنا ذات ليلة ممطرة وإذا بالطارق شاب عارٍ من ملابسه يسأل في براءة حقيقية عن أخته "أروىٰ" والتي لم يكن يقصدٍ بها إلَّا أنا، طردته أمي لكنه لم يمتثل واجتاز الباب إليّ ونطق بكلام كثير لم أفهم منه حرفًا واحدًا لكنني شعرت به..!

وتجمع الجيران وضربوه ضربًا مبرحًا، فاختفى لأيام لم أدخر فيها جهدًا للبحث عنه، بكيتهُ كثيرًا وكأنه فعلًا أخي وتقاذفتني الظنون فرحتُ أسأل عنه في الطرقات والمشافي وكل أبنية الشرطة!

– انتهت قصة هيثم، مر على غيابه عامان لكن لم تنتهِ قصته في قلبي، إنني

أحبه! اكتشفت ذلك بعد رحيله، كِدت أجن بحثًا عنه لكن كأن الأرض ابتلعته، لم أنسَ يومًا أن أدعو له ولم أتخلف عن المرور بالأماكن التي كان يجلسُ فيها ولو ليوم واحد، عامان لم أنسَ فيهم ذلك المجنون فأصبحت أمي تنعتني أنا بالمجنونة!

بعد أيام وصلتني دعوى لحضور حفل تخرج إحدى دفعات كلية الطب، ما علاقتي أنا بهذا ومَن صاحب الدعوى! بالتأكيد هناك شيء خاطئ لن أذهب، يكفيني ما أنا فيه من شتات لست بحاجة لأمر آخر يشتت تفكيري.

وفي اليوم المحدد، هاتفٌ خفي دفعني لأذهب، ما الذي سأخسره إن ذهبت واحتفلت معهم، رؤية السعداء تبعث السعادة في النفس وأنا بحاجة لهذا.

أثناء الحفل لم أدري لَمَ يلاحقني طيفُ هيثم، في الغالب لأنه من المفترض أن يكون هنا يكرمُ مع أَطباء مثله لا أن يُزج به في السجون ويركض عاريًا في الشوارع! شَحَ الهواء حولي وباغتني تفكيري به وحنيني إليه فقررت الانصراف واتجهت خارجة دون حتى أن يبدأ الحفل، وفي طريقي إلى الخارج تناهى إلى أذني صوت أحدهم يهتف:

قبل أن نبدأ الحفل لنستمع إلى كلمة الطالب الأول "هيثم عاصم البغدادي"!

والتصقت قدماي بالأرض، مستحيل إنني واهمة! الوهم هو من صور لي ما سمعت، وجاء الصوت الآخر الذي أعرفه جيدًا:

" عاجزٌ عن قول أي شيء سوى أنني أهدي نجاحي هذا للفتاةِ التي تقف هناك في آخر القاعة متأهبةً للانصراف.. إنها ليلى جارتي فيما مضى، الوحيدة التي أشفقت على شابٍ مجنون جائع عار يقذفه الناس بالحصى.. الوحيدة التي مدت يد العون فبترها الناس وقدمت الرحمة فعاقبها المجتمع عليها.. لا أظن أن أحدكم يفهم القصة لكن يكفيني أنها تفهم.. أحبُكِ، وأهدي نجاحي لكِ ولكل من رأى منكرًا فحاول أن يغيره دون أن يضع وزنًا للناس وللمجتمع وللتقاليد، ولكل من يتعامل برحمة في زمن القسوة هي سيدة الموقف فيه".

- انتهى.

أظن أنكم توقعتم نهاية القصة، وددتُ لو كتبتها لكم لكن "أروىٰ" مولودتي الصغيرة بحاجة لأن تنام الآن، بالتأكيد أرهقت أبيها، وأنا يعز عليّ إرهاقه!

(10)

"ربما لستُ فتاةً رائعة لكنني لن أتزوج إلَّا رجلًا رائعًا كالذي رسمته تمامًا في خيالي!"

كان هذا هو الرد الآلي والمعتاد الذي أضطرُ لسرده دائمًا كلما تحدث أحدٌ في موضوع زواجي المُعقد على حد قولهم..

- أريدهُ حنونًا كأبي لأنني لا أطيق العيش دون حنان، وشهمًا نبيلًا كأخي لأنني لا يمكن أن أعلق مصيري بمصير رجلٍ غير نبيل، أريده قارئًا يقرأ لي كل ليلة ولماحًا يتفهم إعجابي بكاتبٍ معين فـيفاجئني بكتبه كلما ظَنَّ أنني بحاجةٍ للمفاجأة، أريده متفقهًا في دينه يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب ولا ينقطع أبدًا عن دروس المسجد لأنني بحاجة لرجل قلبه مُعَلق بالمساجد.

أريده طويلًا لأشعر بأنه يَفُقنِي في كل شيء وأسمر لأن السمار في عُرفنا نصف الجمال، وذكيًا لأنني لا يمكن أن أحادث أحدًا غير ذكي، أحبه رجلًا هادئًا ثقيلًا، يستقل بحياته لأنني أخشى تدخلات الأهل، ومحافظًا على مساحتي الشخصية فلا أحسُ بأنه يتملكني، ومُعتدًا بنفسه حتى في لحظات خِلافنا، حزنه عزيزٌ وغضبه أعز!

يجيد الحديث بالإنجليزية لأنني غالبًا أحبُ الحديث بها، ميسور ماديًّا حتى لا نعاني معًا إجهاد المادة، يمتلك سيارة لأنني مصابة بفوبيا الشارع والمواصلات العامة.

وصِفَاتٌ كثيرة أخرى ربما سردتها على من أُحِب وربما أحجمتُ عن ذكرها حتى لا أُتَهَم بالتَطلُب!

أذكرُ جيدًا ابتسامة معلمة القرآن كلما شرحتُ لها الأمر، ونظراتها الحنونة كلما أخبرتني دون أن تمل..

"بأن الزواج لا يُبنىٰ على الأحلام والشروط وإنما قوامه الراحة والسكينة تجاه الطرف الخلوق الآخر دون أي اشتراطات أخرى"

فانتبهي قبل أن ينفلت منكِ زمام العمر، فلم أقتنع لكلامها -على خلاف العادة - وإن كنتُ أقتنع به دائمًا.

- اليوم أكتبُ هذا المقال وإلى جانبي "حسام"، رجلٌ لا يحفظ القرآن كله لكنني أقسم بأن أخلاقه كلها قرآن، وطحنتهُ عجلة الحياة فيَتغيَّب دائمًا عن دروس المسجد لكن في قلبه مسجدًا!

رجلٌ يحبُ القراءة لكن مئات المسؤوليات على عاتقه حجبته عنها فلم يقرأ لي سوى ليالٍ معدودة منذ زواجنا أحسبها لشدة فرحتي بها تحولتْ إلى ليلةِ عيد.

رجل لا يَفُقني طولًا، أبيض ليس للسمار موضعًا فيه، ذكيًا لكنه يعاملني ببساطة ويُسر دون حيلة وذكاء فلا يرهقني بحيلته ولا يفتك ذكاؤه بي، يتدخلُ في كل تفاصيل حياتي ويا للدهشة إنني أغضب منه إذا أسقط سهوًا تفصيلةً منها!

لا يفاجئني بالكتب كل يوم لكنه دائمًا ما يفاجئني بكلمات طيبة كلما شَعرَ

أنني بحاجة لذلك وبحديث عذب كلما شعرتُ بقسوة ومرارة الحياة حولي، تزورنا والدته من آن لآخر فيسعد "حسام" بها فأسعدُ لهما، ثم أستحلفها صادقة ألَّا تتركنا وترحل!

حسام لا يتحدث الإنجليزية إلَّا في الضرورة القصوى، فتعلمتُ منه كيف أحبُ هويتي العربية، غير ميسور ماديًّا بالقدر الذي كنتُ أحلم مسبقًا به، لكن ما ضرني عُسر المادة وكل اليُسرِ في أرواحنا، لا يمتلك سيارة فارهة لكنه بالمقابل لم يضطرني للخروج إلى الشارع أبدًا إلَّا وكان في صحبتي، حتى حاجيات السوق يجلبها لي بنفسه!

أذكرُ أنه في خلاف ما قرر أن ينتصِر لنفسه فـآذاني فعله كما لم يؤذني شيئًا ورحتُ أكتب في كل أركان الشقة

﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]..

وظللتُ أرددها بمناسبة أو من دون مناسبة كلما حدثتني أمي أو كلما هاتفتني صديقتي كلما كتبتُ على حائطي شيئًا أو كلما سألني أحدٌ عن الغاية من الزواج.

سبحان الله من يصدق أنني ذات يوم قلتُ لن أتزوج إلَّا رجلًا معتدًا بنفسه حزنه عزيزٌ وغضبه أعز!

– الآن أتذكرُ يوم أن أقسمتْ عليّ المعلمة بأن أمنح نفسي الفرصة تجاه شخص ما ربما لا يحمل صفةً واحدةً من صفات زوج الأحلام الذي

يعيش في خيالي وحدي، فرفضتُ طلبها في البداية رفضًا تامًا، لكنني بعد ذلك رضختُ لرغبتها إكرامًا لها وها أنا في النهاية أنتمي لـذات الرجل، "حسام".. الرجل الذي ألقى بشروطي عرض الحائط فألقيتُ بها راضيةً خلفه.

لقد علمتني معلمتي درسًا مفاده أن الأولويات تتغير ما دام المبدأ ثابتًا، وأن شروط الزواج المُجحفة التي نلهث وراءها سخافة يجب التخلص منها فورًا ما دام الطرف الآخر يستحق إزهاق الشروط لأجله.

لقد علمتني معلمتي درسًا مفاده أن الله لو شاء لخلق الرجال كلهم أئمة على منابر أو مجاهدون في ساحات الحــرب لكن الله رحيم ونبينا كريم اشترط فقط "دينه وخلقه.. دينه وخلقه".

-أذكرُ الآن نفس الكلمة التي قالتها المعلمة لي مرارًا لأنها تحبني حبًّا خالصًا، وها أنا أذكرها ثانيةً لكم لأنني أنا الأخرى أحبكم حُبًّا خالصًا..

" الزواج لا يُبنىٰ على الأحلام والشروط وإنما قوامه الراحة والسكينة تجاه الطرف الخلوق الآخر دون أي اشتراطات أخرى"..

فـانتبهوا قبلَ أن ينفلت من بين أيديكم زمام العمر..!

(11)

"سعيد الأعور"..!

هذا هو اسم بائع المنظفات في المنطقة، فتى في الخامسة عشر من عمره، أسمر البشرة ضعيف البنية له عين واحدة لا تكاد تراه حتى يصيبك الاشمئزاز من هيأته، يأتي إلى حيينا بدراجته البخارية كل أربعاء، بالتحديد في العاشرة صباحًا حاملاً معه العشرات من زجاجات المنظفات وعلب الصابون والمطهرات.

وفي الغالب لا يشتري منه أحد باستثناء إمام المسجد وبعض الطيبين الذين يعتبرون اقتنائهم لأشياء سعيد صدقةً تقربهم إلى الله يدفعون بها الأذى عن أنفسهم وأنفس ذويهم وأحبابهم، وذات أربعاء عندما كنتُ في التاسعة من عمري جاء "سعيد" بدراجته وككل أطفال الحي ركضتُ خلفها ضاحكة أقذفه بالحصى وأنا أهتف معهم بأعلى صوتي "أعور.. أعور.. أعور!"

وفجأة جذبتني من ذراعي يدُ قوية لم تكن سوى يد أمي التي خاصمتني على إثر هذه الفعلة لأربعة أيام متواصلة على غير عادتها معي وتدليلها لي فأنا ابنتها الوحيدة التي لم تفرح بأبيها -على حد قولها- فقد توفى أبي قبل أن أبلغ الخامسة، يومها أخبرتني أن أبناء الحي سيركضون خلفها ذات يوم ويقذفونها بالحصى فكل ما نفعله "لا بد أن يرده الله لنا ذات يوم!" يومها بكيتُ كثيرًا وآذاني تخيل أمي تركض ممزقة الملابس شعثاء الشعر مغبرة الوجه وأبناء الحي يركضون خلفها!

وفي الأربعاء التالي استفقت من نومي على صوت سعيد الأعور وهو ينادي بأعلى صوته "زجاجة الصابون.. الزجاجة بعشرة جنيهات" فغادرتُ فراشي ورحتُ أنظر إليه من النافذة وكانت هذه هي المرة الأولى التي أنظرُ له فيها بشفقة واعتذار وتقدير، وانتبهتُ من شرودي وأنا أراه يخرج كسرة من الخبز اليابس يلتهمها ببطء وسط جمود المارة الذين لم ينتبهوا أبدًا لحالته، ومن دون مقدماتٍ ذهبتُ إلى مطبخنا وأحضرتُ له طعامًا طيبًا ورغيفًا طازجًا من صنع أمي ومضيت إلى الأسفل لأمنحه ما توقعتُ أنه كنزٌ بالنسبة له، ولم أكد أصل إلى المكان الذي كان يتواجدُ به حتى وجدته قد رحل، فرحتُ أجوب الحي بحثًا عنه لكنني لم أجده ولأول مرة أشعر بالخذلان وأن الله يأبى إلَّا أن يعاقبني بـإساءتي إليه.

وانتظرتُ أسبوعًا كاملًا حتى جاء يوم الأربعاء التالي لكن هذه المرة لم أستيقظ على صوته لأنني قضيتُ الليل كله ساهرة في انتظاره، وبمجرد أن لمحته هبطتُ إليه حاملة طعامي الذي أعددته له ثم مددت له يدي به وقلتُ كاذبة "لقد أرسلت لك أمي هذا.. لقد أطعمت كل سكان الحي بالأمس صدقةً على روح أبي" فقبلني سعيد ولا أدري لمَ ارتجفَ جسدي وهو يفعل، ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي أقدم له فيها طعامًا فكل أربعاء كنتُ أفعل حتى وُطِدت علاقتنا ونجح أن يجد في قلبي الخالي مكانًا لا يصلح إلَّا له، هو الآخر كان يبادلني حبًّا بحب ورقة برقة حتى اعتبرته والدتي أخي الأكبر فكانت هي الأخرى تحبه وتحنو عليه وتفرح إذا أتى وتقلق عليه إذا غاب

بلا مبرر للغياب، هو الآخر لم يكن يناديها سوى بـ "أمي" وظللنا على هذا الحال ثلاثة أعوام فبات سعيد فردًا من عائلتنا وبتنا كل عائلته.

وذات يوم أخبرنا سعيد أنه في الغالب سينقطع تمامًا عن بيع المنظفات فها هو قد وصل إلى الصف الثالث الثانوي وقد عقد نيته ألَّا يضيع من وقته لحظة واحدة حتى يحقق حلمه وينتقل إلى الجامعة التي يريد، فشعرتُ أن شخصًا عزيزًا يوشك أن يغادرني بلا رجعة، لكنه نفى ذلك وأكد لنا أنه لن ينسَ رأفتنا معه ورحمتنا به وأنه لا بد أن يرد لأمي صنيعها وأنني كأخته التي لا بد أن يعود إليها يومًا ما ليرد الدين..!

ورحل سعيد وتاهت حكايته القديمة وسط حكايتنا المأساوية ومرضت أمي بـ "لوكيميا الدم" فبعنا لأجل علاجها البيت، وانتقلنا إلى حجرة ضيقة بقلب القاهرة على مقربة من المشفى التي تعالج أمي التي أصبحت على قيد سنتيمترات من الموت وها أنا فتاة فقيرة في الخامسة والعشرين من عمرها ممزقة الملابس مغبرة الوجه تبحث عن عمل بعد أن غُلقت كل الأبواب في وجهها لـاستهتارها الدائم بمواعيد العمل لأنها مكلفة بمتابعة جلسات علاج والدتها.

بعد أشهر طويلة من التعب والقهر والمرض قررتُ إنهاء الرحلة ونسيان الشهادة الجامعية التي أحملها والالتحاق بأي عمل تناسب أوقاته غيابي المتكرر ومواعيدي غير المنتظمة فأمي أهم من أي عمل ومن ألف شهادة، ولم أجد أمامي سوى وظيفة عاملة نظافة بإحدى أكبر شركات الشرق

الأوسط فقررتُ التغلب على شعور القهر والتقدم لها، وبعد يومين كانت قصة الفتاة الجامعية التي ترغب في شغل وظيفة عاملة نظافة تجوب أركان الشركة بعضهم يزدريها وبعضهم ينعتها بالمجنونة وبعضهم عادل فيقول بالتأكيد لم تفعل هذا من فراغ، بالتأكيد لديها أسبابها..!

ولغط من هنا وتعليق من هناك حتى وصل الأمر إلى مدير الشركة والذي لم يلق بالًا للأمر، وبسبب غيابي المتكرر ومواعيدي غير المنضبطة قررت الشركة الاستغناء عن خدماتي بعد ثلاثة أشهر فقط، وعاودني شعور القهر مجددًا فقررتُ اللقاء بمدير الشركة وشرح حالتي له لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

وذات صباح وبينما أقف عند المدخل الخاص بالشركة أنتظر وصول سيارة المدير وأبكي لرجل الأمن حتى يدلني عليها، وعندما فعل وجدتني أركض باكية خلف سيارة سوداء هاتفة بكلمات متداخلة لا يُفهم منها سوى أنني فتاة فقيرة معدمة تسعى لعلاج والدتها المسكينة، أناشد صوت الإنسانية فيكم بألَّا تسرحوني من العمل، ولم تمض ثوان حتى لمحتُ شابًا أنيقًا يجلس بالداخل يفتح زجاج سيارته ليتفحصني جيدًا، يرتدي نظارة أنيقة وبذلةً سوداء فاتنة ورباط عنق لامعًا يبدو أنه قد غادر علبته للتو، ملامحه طيبة لكنه يبدو مستاءً من ركضي غير المبرر خلف سيارته!

ولم أدري لِمَ داهمت عقلي ذكرى "سعيد الأعور" إن ما أفعله الآن مجرد إعادة لمشهد قَديم طوته الذاكرة فلم أذكره إلَّا اليوم، يومها كنتُ أركض مع بعض أبناء الحي وبيدي بعض الحصى أقذف به شابًا صغيرًا وأناديه بالأعور،

أيعقل أن يكون هو؟!.. أيعقل أن يتكرر نفس المشهد بهذه السهولة؟! لكنه هذه المرة يستقل سيارة أنيقة وليس دراجة بخارية، أيعقل أن يصبح بائع الصابون مدير شركة؟!

وشعرتُ بالأمان فتوقفتُ عن الركض وهبطَ هو وتساءل في ضيق عمَن أكون دون أن ينتبه لفتاة دعاها بأخته ذات يوم! فأجابه أحد حراسه أنني عاملة النظافة التي تم فصلها بالأمس فهتف:

- أعيدوها إلى العمل وامنحوها بعض المال ثم اصرفوها من هنا!

لا أدري لمَ شعرتُ وكأن حية لدغتني فانصرفتُ على الفور وصوته يرن في أذني مردداً "اصرفوها من هنا" وتذكرت قول أمي يوم أن خاصمتني لركضي وراء سعيد أن "كل ما نفعله يرده الله لنا" لا أدري لمَ لم يرد الله لنا سوى صنيعي السيئ معه رغم أنني تبت إلى الله منه ثم أحسنتَ إليه، أيكون جزاء إحساننا له بعد أن خذلتنا الدنيا وأتعبتنا الأقدار وبتنا في حاجة ماسة له أن يطلب من حراسه أن يصرفوني من هنا؟

وشعرت بالغضب على العالم وبالحقد على هذا المجتمع الظالم، وبعد ساعات من الدوران في الشوارع والتسكع باكية في الطرقات عدتُ إلى المشفى حيث أمي تجلس مسبلة العينين متيبسة الجسد صفراء الوجه تخبرني باكية أنها قد أثقلت عليّ وأنها لا تتمنى شيئًا سوى أن ترحل في سلام فيكفيني ما عانيته لأجلها، وسألتها هل تذكرين سعيد الأعور؟ فأشرق وجهها هاتفة:

- ابني الذي لم أنجبه، عسى أن يكون في حال أفضل من حاله سابقًا،

تذكرين؟ إنه الخير الذي تاجرنا مع الله به ولا بد أن يرد الله إلينا جزاء إحساننا إليه ذات يوم، فبكيتُ.

ولم تكد تتم قولها حتى دخل أحدهم الغرفة ببذلته الأنيقة ورباط عنقه اللامع يتبعه مجموعة من الحراس، هاتفًا بصوت متحشرج وملامح متلهفة أنه أخيرًا قد وَجد أمه وأخته، بعد ما أمضى سنوات كثر في البحث عنهن دون جدوى، وأنه لم ينسَ أبدًا السيدة التي احتوت فقره وأحبته أعورًا فقيرًا بائعًا للصابون، فأطعمته وقت جوع وأحسنت إليه بلا مقابل وأغدقت عليه أصنافًا من الحنان وقت قسوة الأيام عليه.

كنت أقف باكية على مقربة من الفراش لا أكاد أصدق ما أراه، وأبتهل إلى الله في داخلي ألَّا يكون ما أراه حلمًا لا واقعًا، حتى رأيته بتقدم بعض خطوات من فراش أمي ثم ينحني ليطبع قبلة حانية على جبهتها ثم ينظر لي متسائلًا بقلق ما لكِ متعجبة هكذا بالتأكيد لا تذكرينني!

(12)

في الثامنة والعشرين من عمري وقبيل زفافي بأيام فُسخت خطبتي وتم إلغاء وتجاهل كافة الاستعدادات التي سهرنا على تجهيزها لأيام، لسبب أو لآخر انتزعت مني بهجتي وألغي زفافي ونظرات الآخرين باتت تلاحقني كرصاص يستقر في قلبي، الجميع عيونهم متشككة وشفاههم متأهبة للتساؤل عما حدث.

بعد عامين من هذا الحدث تقدم لخطبتي "وليد"، لسبب ما هو الآخر ترك مخطوبته قبل زفافها بأيام، تمت تجهيزات العرس بسرعة متناهية وها أنا أجلس إلى جانبه في حفل زواجنا، بعد دقائق من الآن سأكون في بيته، بعد دقائق من الآن سأصبح فتاة متزوجة عاقلة رزينة لها مكانتها في المجتمع، يُسمع رأيها ويُحترم كلامها، لا تلاحقها نظرات أحد، ولا يجرؤ على اتهامها بالعانس أحد، لعنة الله على التقاليد التي تسلب الفتاة تقديرها واحترامها مهما كانت إنجازاتها لمجرد أنها لم تتزوج، ويكأن الزواج هو صك الأمان والاعتراف لها بكامل حقوقها الآدمية، ومُستَند عتقها من العبودية إلى الحرية.

قبيل انتهاء الحفل بدقائق جاءت إليّ فتاة تغطي وجهها بوشاح أرجواني أغلب الظن أنها تحاول إخفاء ملامحها به، ثم قالت بنبرة مرتعشة: إنني أحمل في أحشائي طفلًا أبوه زوجك الجالس بجانبكِ الآن، إنني مخطوبته الأولى، لا أدري لِمَ أدار ظهره إليَّ بمجرد علمه بحملي منه، أرجوكِ ساعديني!

قلتُ لها بصوت مبهوت لا يكاد أن يغادر شفتي من هول الصدمة

امنحيني رقم هاتفك وأنا لا أدري ما الذي سأفعله به، شددتُ على يدها بقوة وقلت لها اطمئني، انتهى الحفل الذي لم ألحظ منه شيئًا مذ أن حدثتني الفتاة، عدنا لشقتنا أنا وهو، "وليد" الذي خدعني وتبرأ من ابنه دون مبرر أو سبب واضح!

ومن دون مقدمات سألته لِمَ تركت خطيبتك رغم أنها تحمل في أحشائها طفلًا منك؟! كان السؤال مباغَتًا، لم ينجح في إخفاء توتره، تلعثم ثم وقف ثم جلس مرة أخرى ثم قال أخيرًا: إنني لا أرتضيها زوجة لي بعد ما حدث بيننا، وكأنه يعاقب الفتاة لا لشيء سوى أنها وثقت به!

بعد زواجي بشهر ونصف كنت أجلس أمام المأذون الشرعي أوقع ورقة طلاقي من وليد الذي عقد قرانه على مخطوبته الأولى بمجرد طلاقي منه، بعد إلحاح مني ومحاولة تصليح العلاقة البائسة بين الطرفين، قبلتني الفتاة واحتضنتني بقوة ثم همست ودموع تكاد تطفر من عينها لن أنسى صنيعك هذا ما حييت، ستركِ الله في الدنيا والآخرة.

وعدتُ مجددًا لحياة لا أرتضيها ولـلقب لا أتحمل توابعه "مطلقة"، الجميع يحتقرها، وكلهن يخشين على أزواجهن منها، الكل يتساءل تُرى لِمَ طلقها زوجها بعد الزواج سريعًا هكذا، الجميع ألسنتهم حادة، وعيونهم غادرة وكلماتهم مسامير ترشق في جسدي الضعيف، في كل مرة حاولت أن أبرر موقفي كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة، كنت أخبر نفسي أنني تفانيت من أجل ستر فتاة ضعيفة وتحملت ما لا يمكن تحمله فقط من أجل أن أشعر

أني فعلتُ شيئًا ذا قيمة وأن حياتي لم تذهب سدى، لا بد أن الله سيكافئني على ما فعلت يومًا ما.

لكن متى؟ لقد انقضى على طلاقي منه خمس سنوات، لقد أتمت الصغيرة التي ضحيتُ بزواجي من أجلها أكثر من أربعة أعوام، أنا الآن فتاة في الخامسة والثلاثين من عمرها مطلقة رغم أنه لم يمسها رجل قط، حتى "وليد".

بعد أيام انهار المبنى الذي كنا نقطن به، الضحايا كُثر ما بين مصاب وجريح وقتيل، الحادث جلل، لقد توفيت أمي -على إثره- آخر من تبقى لي من العائلة، أما أنا فـالانهيار كان سببًا في بتر ساقي وفقدان بصري، لقد اسودت الدنيا في عيني، لا أدري من سيعولني بل مَن حتى سيدفع تكاليف المشفى، لم تمض دقائق من التفكير المميت حتى انبعث من جانبي صوت إحداهن تقول بصوت هادئ: حمدًا لله على سلامتك، لقد أخبرونا بالخارج أنكِ أخيرًا استفقت من غيبوبتك.

لم أنجح في تمييز الصوت لكنها سرعان ما هتفت: ألا تذكرينني؟!

إنني الفتاة التي تشكر صنيعك وتحمل جميلك في قلبها إلى أن تموت، لقد جاء "وليد" هو الآخر ليطمئن عليك، لا تقلقي سنتحمل نحن مصاريف المشفى ومن الآن لا بيت لكِ سوى بيتنا وإننا من الآن كلَ أهلكِ إن لم تخذلينا وقبلتِ ذلك!

- انقضى عامان على هذا اللقاء ثم ها أنا أرى الصغيرة " ليلى" للمرة الأولى بعد جراحة في عيني كُتب لها النجاح، إنها تناديني بـ ماما ولا تنام

إلَّا بين ذراعيَّ، لقد نجح وليد بالأمس في اقتراض مبلغ من المال، يقول إنه سيشتري لي به طرفًا صناعيًّا، إن زوجته تعتني بي كما لو كانت أختي، أكتب هذا المقال وهي تمشط لي شعري الآن بالمناسبة.

إنها تردد دائمًا أنني آنستُ وحدتها بعد ما أنقذتها من الفضيحة سابقًا، الجميع يتساءل كيف للزوجة الأولى العاجزة كليًّا أن تصبح أحد أفراد الأسرة التي يُعمل على راحتها ليل نهار؟! فترد أم ليلى قائلة: اسألوها هي، إنه دين قديم طوقت هي به رقابنا قبل سنوات، فـأردد دائمًا: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء!"

(13)

عمي "وليد".. شقيق أبي وعمي الوحيد، بعد وفاة جدي بأيام قليلة نشبَ بينهما نزاع لم ينجح أحدٌ في حله رغم تدخل الكثيرون للصلح بين الإخوة إلَّا أن أبي وعمي رفضا كل محاولات الصلح، في النهاية اعتدى كل منهم على الآخر حتى سالت دماء الاثنين.

بعد هذه الحادثة بأيام قليلة جمع عمي متاعه وقرر مغادرة حيينا تمامًا مدّعيًا أنه سيذهب إلى أقصى الأرض بعيدًا عنا، لأنه لا يحب أن يرى وجه أبي، فعلى حد قوله لقد أكل والدي ميراثه وقطع الرحم التي كانت تجمع بينهما يومًا ما.

في يوم رحيله أذكر أنني كتبتُ خطابًا طويلًا لـ" رهف" ابنة عمي ورفيقة دربي وتوأم طفولتي.. أخبرتها أنني لن أنساها أبدًا وأنني أحبها أكثر من أي أحدٍ في العالم وأكره أبي وعمي لأنهما بعنادهما تسببا في إنهاء حياتنا معًا.

لم تكن رهف مجرد قريبتي فقط، كنا نأكل سويًّا ونلعب سويًّا ونتبادل إرسال الخطابات تقليدًا منا للشباب الكبار، حتى مقعد الدراسة كنا نتشاركه معًا لأنها تأبى أن تستقر في صفها وتأتي يوميًّا إلى صفي رغم أنني أكبرها بأربع سنواتٍ.

كنتُ في الخامسة عشر من عمري يوم رحيلها من الحي حينها منحتها الخطاب الأخير وأخبرتها لآخر مرة أنني أحبها كأختي وأنني لن أنساها أبدًا، لم تُعلق بشيء فقط قالت لي عندما نكبر سنلتقي، إياك أن تتزوج!

تجاوزتُ الثلاثين من عمري، بحثتُ عن "رهف" بحثًا استنفد وقتي

ومجهودي وطاقتي، قرابة عشرين عامًا وأنا أجوب الأماكن بحثًا عنها، كلما قررت الزواج باغتني صوت صغيرتي المرتجف يوم وداعنا "سنلتقي.. إياك أن تتزوج"، في النهاية تزوجت، انتظارها بات سخافة في سخافة وحمق في حمق!

أنا أيضًا أنجبتُ "رهف"، طفلة كالقمر توفت أمها أثناء ولادتها، وبعد أشهر قليلة توفي أبي، لحظة وفاته بكى كثيرًا واستحلفني أن أبحث عن عمي وأن أرد له حقه وأن أستحلفه كي يغفر لأبي!

آه يا أبي! لماذا لم تفعل أنت هذا، أكان لازمًا أن يباغتك الموت حتى ترد له حقه؟!

وبدأت دوامة البحث من جديد، أبي يُعذب في قبره الآن، شئتُ أم أبيتُ لا بد أن أعثر على عمي من أجل أبي، من أجلي ومن أجل "رهف!"

تُرى هل ما زالت تذكرني، بالتأكيد فقدتني في زحمة حياتها، بالتأكيد تزوجت ولديها أبناء في عمر رهف ابنتي وربما أكبر بقليل، بعد ثلاثِ سنواتٍ كنت أمام الكـعبة أحملُ صغيرتي على كتفي وأسأل الله أن يرحم زوجتي وأبي وأن أتعثر برهف وأبيها.

وبينما أنا أصلي إذا برهف الصغيرة تهبط من كتفي لتستقر بحجر إحدى النساء المُصليات إلى جانبي، تناهي إلى مسامعي صوت ضحكات "رهف" وحديثها المتلعثم المُتبادل مع المرأة، لم أشأ أن أقطع سعادتها، تركتها يلعبان قرابة النصف ساعة، كنتُ ممتنًا لصنيع المرأة فـابنتي حُرِمت من وجود أمها منذ لحظاتها الأولى في هذا العالم.

لم أتمكن من تَبين ملامح المرأة بشكل كامل لكن لا أدري لمَ داهمتني رائحة "رهف" فتاتي الأولى ورفيقة طفولتي وكل ذكرياتي، حاولتُ أن أسألها من تكون لكن توتر الفتاة الخجلة حال بين ذلك، في النهاية شكرتها وانصرفنا.

بعد دقائق كنت أعود أدراجي راكضًا إلى نفس المكان، عقدتُ العزم أن أسألها من تكون، كنتُ أدعو الله جاهدًا أن ألتقي الفتاة مجددًا وألَّا يصرفها من مكانها حتى أصل إليه، مشاعرُ متخبطة تدفعني للإحساس بأنها "رهف" ابنة عمي ورفيقة طفولتي فأرفع بصري للسماء متعلقًا برحمة رب السماء، ومشاعرُ أخرى تدفعُ عني التعلق بأملٍ ضعيف مفقود فأهذب أملي لئلا ينطلق بي في وهم يؤذيني أن يظل مجرد وهم!

- اسمي "رهف".. بعد وفاة جدي بأيام قليلة تصارع أبي وعمي صراعًا لم يحدث مثله بين أخوة، في النهاية قرر أبي رحيلًنا من الحي لأن وجوده هنا يذكره بظلم أخيه له، كانت حياتنا صعبة ولم تكن الظروف في صالحنا يومًا ما، كلما قررتَ الدعاء على عمي الظالم تذكرت ابنه "تميم" فتايَّ الأول ورفيق طفولتي، كيف لرجل قاسٍ صلبٍ جشعٍ كعمي أن ينجب فتى طيبًا رقيقًا كتميم؟!

يوم رحيلنا من الحي كتبَ لي خطابًا لا زلتُ أحتفظ به حتى الآن، تواعدنا على اللقاء عندما نكبر، لكننا كبرنا وحتى هذه اللحظة لم نلتقِ! لم يغب عن خاطري ثانية ولم أتجاهل يومًا أن أبحث عنه، تُرى هل تزوج أم أنه لا زال مثلي يرفض الزواج بأنثى سواي. بالتأكيد نسيني في زحمة مشاغله، بالتأكيد لديه زوجة وأبناء الآن ولا يتذكر حتى أننا كنا نعرف بعضنا ذات يوم!

توفي أبي، لكن لحظة وفاته استحلفنا بالله أنا وأخي أن نبحث عن عمي، وأن نخبره أنَّ أبي سامحه وأنه يبرأه من حقه، إذ كيف له ألَّا يسامح أخاه الوحيد، وكيف له أن يقابل ربه برحمٍ مقطوعة كان هو السبب في قطعها يوم أن قرر مغادرة الحي وقطع كل سبيلٍ من شأنه أن يوصله بعمي!

آه يا أبي، لماذا لم تفعل هذا وأنت على قيد الحياة، أكان لزامًا أن يباغتك الموت حتى تسامحه؟! وبدأت دوامة البحث من جديد لم نتوان لحظة في العثور على عمي من أجل أبي القابع في قبره ومن أجلي ومن أجل "تميم"..!

بعد حادثة بترٍ للقدم تعرض لها أخي ورحلة علاج طويلة استنزفت كل طاقته قررنا الذهاب به إلى مـكة، ربما هناك تستريح أرواحنا المتعبة وتهدأ نفوسنا المضطربة طوال العمر، وذات ليلة وبينما أصلي أمام الكـعبة إذا بفتاة صغيرة تستقر في حجري، لم أفهم نصف كلامها المتلعثم لكنني أحببتها وتمنيت أن تظل في حضني إلى الأبد فلا أخرجها أبدًا منه.

يبدو أنها بلا أم فقررت أن تمارس طفولتها مع أول سيدة تتعثرُ بها، سألتها عن اسمها فأجابتني "رهف".. دق قلبي في عنف ولا أدري لِمَ باغتتني ذكرى "تميم!"

ظلت تتلاعب في حجري لنصف ساعةٍ كاملة، في النهاية شكرني والدها، قررتُ أن أسأله عن اسمه لكنني حتى استحييتُ أن أنظرَ في وجهه لأتبين ملامحه! هو الآخر حاول أن يقول شيئًا ما لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، شكرني مجددًا ورحل رغم بكاء وتعلق صغيرته بأصابعي، ظللت أتابعهما ببصري حتى تاها في زحام المعتمرين!

بعد ثوانٍ كنتُ أقف بغرفتي في الفندق أبدلُ ملابسي باكية لتذكري حسام وأبي وأيام طفولتي، لكنني بعد ثوانِ أخرى كنت أرتديها من جديد لأعود راكضةً إلى نفس المكان، هاتف خفي يدفعني لأذهب هناك مجددًا، كل مشاعري تنبأني أن هذا الرجل "تميم" وأنه سيعود إلى نفس المكان ليبحث عني، بالتأكيد هذه ابنته "رهف" والتي أطلق عليها اسمي.

بالتأكيد مشاعري تجاه هذا الغريب لم تأتِ من فراغ ولم توجد عبثًا، بالتأكيد عرفني كما عرفته، كنت أدعو الله جاهدةً أن يعود إلى نفس المكان وألَّا ينصرف منه قبل أن أصل إليه، مشاعرٌ متخبطة تدفعني للإحساس بأنه "تميم" ابن عمي ورفيق طفولتي فأنظر إلى السماء متعلقة برحمة رب السماء، ومشاعر أخرى تدفع عني التعلق بأمل ضعيف مفقود فأهذب أملي لئلا ينطلق بي في وهم يؤذيني أن يظل مجرد وهم.

(14)

-"بالله عليك أدركنا أيها الطبيب، إن أمي تموت بالمنزل"..

أمسكتُ بحقيبتي الطبية وبعض أشيائي واتجهت مسرعًا تسبقني خطواتها الصغيرة ووشاحًا قرمزيًّا قد لفت به كتفيها العاريتين في محاولة واهية لاستجلاب الدفء مما جعلها تبدو كملاك صغير.

سِرت وراءها مأخوذًا وكأن شخصًا غيري هو الذي يمشي، أو ربما هناك قوة خفية تدفعني للسير خلفها بكل هذا الحماس الذي لم أذق طعمه منذ أن نُقلت رغمًا عني للعمل في مشفى بأحد الأرياف التي تعج بآلاف الفيروسات والأمراض وعلى رأسها الخرافات والجهل!

انتشلني من تفكيري صوت مساعدي الخاص أو ممرض الوحدة كما يقولون، لقد أتى راكضًا خلفي قائلًا وهو يلهث من فرط التعب:

-إلى أين أنت ذاهب يا دكتور؟ استنشقَ بعض الهواء في صعوبة ثم هتف إن هذا الطريق هو أخطر طريق يمكن أن تسلكه في حياتك، إنه لا يؤدي سوى إلى بيت الأشباح!

- أي أشباح أيها الأبله! إن والدة هذه الطفلة مريضة، قالت لي إنها بحاجة مُلحة إلى طبيب واستدرتُ أشيرُ إلى الفتاة الصغيرة الواقفة أمامي فلم أجدها!

ابتسم الرجل ابتسامة ظفر ثم أردف ساخرًا: ألم أقل لك؟!

عدتُ إلى غرفتي بالوِحدة لا أكاد أصدق أن الوهم هو الذي صور لي ما حدث لقد رأيتها بعيني، صوتها لا زال في أذني وصورة وشاحها القرمزي لم تغادر مخيلتي حتى الآن!

تركت التفكير جانبًا وتدثرت بالغطاء الثقيل محاولًا النوم لكنني انتبهت على صوتها بعد دقائق تهزني برفق ودموع بريئة تكاد تطفر من عينها قائلةً في لوم: ألم أقل لك إن أمي في حاجة إليك؟ أرجوك اتبعني ولا تلقي بالًا لكلام مساعدك، إنها أمكَ أنت الآخر!

هتفتُ مُندهشًا:

– أمي أنا..! لقد توفيت أمي وأنا في السادسة من عمري.

– ألم تنشأ في ملجأ الرحمة للأيتام الموهوبين...

وانقطع حديثها فجأة بعد أن فتح مساعدي الباب قائلًا بدهشة: مع من تتحدث يا دكتور؟

لم أرد عليه، ارتديتُ معطفي الأبيض وأمسكت بحقيبتي وسرت في نفس الطريق غير عابئ بنداء الممرض وتحذيره لي، أتساءل مندهشًا كيف عرفت ابنتها قصة الملجأ الذي نشأتُ فيه، إلى أن وصلت إلى ذلك البيت العتيق، سرت في جسدي رجفة باردة، كدتُ أتراجع حتى لاح لي شبح ابنتها من الطابق الثاني وهي تهتف:

أسرع يا دكتور أمي توشك أن تموت، خطوتُ للداخل بضع خطوات مترددة، لكن الأنوار المتلألئة وضحكات أطفال كثر حولي أزالت عني

القلق، تعلق بعضهم بطرف معطفي والبعض الآخر ظل يتلاعب حولي حتى وصلتُ الطابق الثاني.

قمت باللازم تجاه السيدة وقبل أن أنصرف قلت لها:

– يا أمي، عندما تعود ابنتك أخبريها أن تعطيك هذا الدواء بعد ثلاث ساعات من الآن.

قالت بصوت جريح مُتعب:

– لكنني امرأة عقيم يا بني، لا أبناء لدي!

– إذن من الفتاة الصغيرة التي كانت هنا؟!

– لا أحد هنا سواي يا ولدي، لم يدخل أحد هذا البيت منذ سنوات سوى عامل الجمعية الخيرية!

للأسف أهل القرية يقولون إنه بيت الأشباح، ربما لأنني لم أنجح في إنجاب طفل واحد فبدا لهم أنني شبح امرأة، صحيح لا أدري من أخبرك إنني مريضة وأتى بك إلى هنا، لكنني أشكرك على كل حال.

تصلبتُ مكاني لثوان ثم عدوت لاهثًا إلى الخارج، ارتطمتُ بجسد أحدهم عند الباب الخارجي للحديقة، كدت أصرخ، لا بد أنه شبح هو الآخر، لكنه نادى عليّ قائلًا:

– يا هذا، هل السيدة لا زالت على قيد الحياة؟ سمعت أنها مريضة جدًّا.

قلتُ بصوت عال:

- ليتها تموت، أظنني عالجتُ شبحًا!

فقال مستاءً:

- يا رجل استغفر الله مما قلتَ، إذا أصابها مكروه من غيرها سيتكفل برعاية ودفع تكاليف دار أيتام الرحمة للأطفال الموهوبين؟ ألا تعرف من أنا؟

إنني عامل بريد جمعية الرحمة لأعمال الخير، جئتُ لتحصيل أموال الإعانات من السيدة الطيبة التي ألزمت نفسها بدفعها بداية كل شهر منذ سنوات بعيدة جدًّا، لكن القطارات المتعطلة طوال النهار كانت سببًا في وصولي متأخرًا بعد منتصف الليل.

(15)

لأول مرة استيقظ وحدي دون أن يرن منبه هاتفي، لم يوقظني سوى أذان الفجر!

ورغم أنني لم أسجد لله سجدة واحدة منذ سنوات، إلَّا أنني وجدتُ بنفسي رغبةً عارمة للصلاة، اغتسلتُ رغم برودة الجو وبالرغم من تجمد المياه في الصنبور، واتجهتُ للمسجد الذي يقبع على أطراف حيينا رغبةً في ازدياد الأجر، ولكم تعاظمت دهشتي عندما وجدت المسجد ممتلئ عن آخره بالمصلين!

قلتُ في نفسي لعلنا في أيام الاختبارات ولعلَ هؤلاء رجالها، نظرتُ أتفحصهم لكن دهشتي تعاظمت فالمسجد يعج بأناسٍ من كل الأعمار من الأطفال والشباب والشيوخ، ربما اختلط عليّ الأمر، لعلنا في صلاة الجمعة مثلًا!

نظرتُ في ساعتي لأتأكد من توقيت الفجر فإذا بالإمام يدنو مني قائلًا في ود: مرحبًا بفارس الفجر!

- يا ربي ما هذا الذي يحدث؟!

عدت لغرفتي أدرتُ التلفاز، لا بد أن الذي حدث بمسجد قريتنا ستذكره محطات الأخبار، لكنني فوجئت بمقدم نشرة الأخبار يقول في ابتسام مُبهج:

- صباح الخير، لا توجد أخبار اليوم، فالسلام يعم أرجاء المنطقة!

لم أفهم، أدرت التلفاز على محطة أخرى وإذا بالمذيعة تقول ووجها مبتل بدموع الفرح:

– لقد حُررت فلسطين المحتلة، وعادت القدس إلينا بعد احتلال دام أكثرُ من نصف قرن، لقد انسحبت القوات الأمريكية من العراق، وعادت إلينا بغداد جوهرة البلدان وصانعة الحضارة، لقد عم السلام أرجاء سوريا بعد دمار دام لسنوات طويلة، والأسد يدعو الشعب السوري لانتخاباتٍ نظيفة مع بداية الشهر المقبل، ما عادت هناك مجاعات باليمن، ولا ظلم أو قتل بأرض الحرمين!

يا ويلي؛ يا رب ما هذا الذي يحدث؟!

لعل بهذه المحطة عطل أيضًا، انتقلتُ إلى المحطة التي تليها، وإذا بالرئيس المصري يوجه خطابًا لأبناء شعبه قائلًا:

– أبنائي، لقد تم افتتاح أكثر من نصف مليون مصنع وشركة فجر اليوم، ومن الآن فصاعدًا سنقوم بتوظيف الخريجين ولن يكون للبطالة مكان بيننا بعد الآن، وبالنسبة للعمل بالهيئات القضائية والسلك الدبلوماسي، فالتعيين سيكون بأولوية التقدير، لا مكان للرشوةِ أو المحسوبية منذُ اليوم، وتعليقًا على السلام الذي يعم أرجاء المنطقة، لقد قررنا نحن تزويج كل شاب تجاوز الخامسة وعشرين عاماً دون زواج من خزينة الدولة، وإرسال كبار السن إلى بيت الله الحرام لو لم يسبق لهم الحج قبل اليوم.

سأجنّ، يا رب ما هذا الذي يحدث؟!

أطفأتُ التلفاز لعل به عطلًا كليًّا، أدرتُ الراديو، وإذا بصوت منبعث منه يقول في ابتهاج:

- بعد اجتماع لها بوزير الثقافة قررت وزيرة التموين توزيع كتاب لكل مواطن مع السلع الغذائية الخاصة به، فلا خير في أمة اقرأ إن كانت تأكل ولا تقرأ!

رفقاً بعقلي يا رب.. فما هذا الذي يحدث؟!

- "سامح"، انهض يا بني كفاك نومًا، اذهب وابحث عن عمل سنموت جوعًا.

- أمي، لقد حصلت على عمل جيد، وحُررت فلسطين، وعادت لنا بغداد، لا توجد انقسامات في ليبيا، سأتزوج غدًا وستذهبين إلى الحج...

-كفاك خزعبلات يا حبيبي، انهض يا بني منبه هاتفك يرن منذ ساعة!

(16)

"ليلى محمود النجار" أبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، حاصلة على الثانوية العامة بمعدل ممتاز، لطالما حلمتُ بدخول كلية الطب ومعالجة كل مريض بالقلب، وقد كان لي ذلك بعد مسيرة طويلة مثقلة بالعناء والكفاح قطعها معي أبي العزيز بعد وفاة أمي بثقب في القلب وأنا في العاشرة من عمري.

أول يوم لي بالجامعة عدتُ وأسرابًا من السعادة تحلق فوق قلبي وبمجرد وصولي إلى المنزل استحالت كل هذه السعادة إلى أكوامًا من الحزن والقهر والخوف من القادم المجهول، فقد بُتِرت ذراع أبي اليمنى وجزء من كتفه خلال تعامله مع إحدى ماكينات المصنع الذي يعمل به.

ولم يعد أبي صالحًا لعمل شيء يُذكر لا سيما أنه في الخامسة والخمسين من عمره، كلما تقدم إلى وظيفة رُفِض طلبه بعد أن يمنحه القائمين عليها قليل من المال وكثير جدًّا من الشفقة، حتى خارت قواه وكُسرت روحه فتوقف تمامًا عن البحث عن وظيفة تضمن لنا العيش دون مذلة واستجداء.

أنهيتُ عامي الأول بكلية الطب بقليل من المال الذي منحوه لأبي تعويضًا عن ذراعه المفقودة، وفي العام الثاني أوشكت النقود على النفاد وكدنا نموت جوعًا لولا لطف الله، ما كان لي أن أراقب المشهد من بعيد هكذا وكأنه لا يعنيني قررتُ رد الجميل لأبي الذي تسوء حالته كل يوم وتنحدر نفسيته للحضيض كل ثانية.

بعد تفكير مُهلك قررتُ مجاراة الواقع وإلغاء الرحلة والتخلي عن الحلم، تركت كلية الطب رغبة في الالتحاق بعمل يسد احتياجاتنا اليومية، ليس من العدل أن أستمر في دراسة الطب وأبي قد انقطع عن إحضار دواءه لأننا عجزنا عن ثمنه، فتاة تدرس الدواء والطب لتعالج به المرضى لكنها مع ذلك عاجزة عن علاج أبيها المريض!

لم أشأ أن أخبره بما نويت فعله حتى لا أؤلمه، يكفي ما به من ألم، في اليوم التالي لم أعرج على الجامعة وإنما ذهبت لإجراء مقابلة شخصية مع شركة "لاس كابيناس" والتي لم تضع شروطًا للتعيين بها سوى حسن المظهر وإجادة الإنجليزية والعمل تحت أي ضغط، وأعتقد أن كل هذه الشروط متوفرة لدي.

لم تمض دقائق على إجراء المقابلة حتى قالت لي السكرتيرة بالحرف الواحد بعد أن ألقت بملفي في سلة المهملات إلى جانبها "اذهبي للخدمة في البيوت أو لتلميع السلالم أو حتى لحياكة الأحذية، إمكاناتك لا تصلح سوى لفعل هذا عزيزتي!"

وخرجتُ إلى الشارع مكسورة الخاطر، مهيضة الجناح مُهدرة الكرامة، وصلت بأعجوبة إلى منزلنا جافة المآقي لكثرة ما أهدرت من دموع، لكن لم تمضِ ساعتان حتى سلمني ساعي البريد خطابًا كُتب فيه..

"اعتذار واجب من شركة "لاس كابيناس" للطبيبة ليلى النجار، لقد قمنا بإعداد هذا الفخ خصيصًا لكِ لإذاعته على التلفاز في شهر رمضان

المقبل، وقد تم إرفاق مبلغ يسير مع الخطاب هدية لكِ، يسعدنا أن تقبليها، نتمنى موافقتك على إذاعة المشهد،

إن رغبتِ بذلك الرجاء التوقيع على خطاب ساعي البريد فلا يزال متواجدًا بالخارج".

ضحكت كثيرًا، وفرحت بالمبلغ أيما فرحة وحكيت لأبي -الذي تلألأ وجهه ولم يستطع أن يكتم ضحكاته المدوية- كل ما حدث بالتفصيل ثم قال لي بصوت يقطر عطف: "أبُ عاجزٌ عن كل شيء لكنه يملك لكِ الكثير من الحب".

بعد ثلاثة أشهر توفي أبي، بعد رحلة عناء طويلة كُتِبَ عليَّ في النهاية أن أمضيها وحدي دون عائلة أو حتى دراسة أو عمل!

بينما كنتُ أمضي مُعظم وقتي في غرفته أتخيل وجوده بها فأحتضن وسادته وأقبل ملابسه أو أرتب أغراضه سقطت منها فجأة ورقة كُتب فيها بخط أبوي حنون ..

" لم ينقطع بكاء ليلى ابنتي طوال الليلة الماضية، لا أعلم سبب بكائها لكن على ما يبدو أنها نامت بالأمس ببطن خاوية وأحشاء يأكل بعضها بعضًا من شدة الجوع، تبعتها في الصباح الباكر أخشى ذهابها إلى الجامعة بحالتها المُنهارة تلك، لكنها للأسف لم تذهب إليها.

قررت ليلى ابنتي ترك دراستها والبحث عن عمل لكنها على ما يبدو طُردت منه شر طردة، فخرجت تبكي إلى الشارع وكأنها لا تقدر على شيء

سوى البكاء، بئسَ الأب أنا وبئس العائل أبيكِ وبئسَ مَن تسبب لك في كل هذا الأسى يا حبيبتي، يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا.

بعدها بأقل من ساعتين اقترضُت مبلغًا من أحد الأقارب وأرسلته لها مع ساعي البريد مرفقًا باعتذارٍ كاذبٍ لم يكتبه إلَّا أنا.

– آه يا ليلى، لم يبك أبوك يومًا مثلما بكى اليوم، حتى يومَ أن ماتت أمك كنتُ أكثر جلدًا من يومي هذا، ويوم أن بُترت ذراعي كنت أكثر رضًا وصبرًا رغم أن هذا أسوء ما يمكن أن يتعرض له رجل، فضلًا لتسامحي أبًا عاجزًا، لا يفعل لكِ أي أمر سوى أن يبكي لأجلك كل ليلة قبل أن ينام، ولا يملك لكِ أي شيء سوى الكثير من المشاعر والكثير الكثير من الحب.. هلا سامحتِه يا بنتي؟!

(17)

من النظرة الأولى لها؛ علمتُ أنها متكبرة ومتعجرفة لا تحدث أحدًا ولا تلقي السلام على أحد، حُق لها ذلك!

جمالها مبهر جدًّا ويخطف حتى أنظار ضعاف البصر، هذه كانت صفات ابنة الساكن الجديد بحيّنا المهندس المعروف "أحمد طاهر"، رجل لامع يعمل بالعقارات ويمتلك آلاف الملايين لكنه لم ينس أبدًا أنه كان أحد أبناء الطبقة المتوسطة فآثر العيش بينهم حتى بعد أن فتح الله عليه فتحًا مذهلًا، أقام مدرسة ومسجدًا ومشفى بذات الحي وراح يوزع الصدقات بلا حساب وكأن الله أمره بفعل ذلك.

يملك من الأبناء صبيًا صغيرًا وفتاة يملأها الكبر والتعنت، لا أذكر أنها حدثت أحدًا منذ انتقلت للعيش هنا رغم أن معظم شباب الحي كانوا يتعمدون الحديث إليها، ولا أذكر أنها اندمجت معنا أبدًا في أي مناسبة بخلاف أسرتها سريعة الاندماج والتعايش، مع مرور الوقت انطفأت هالة الأنوار التي تحيط بها، الكل كره صمتها الدائم وغرورها وتعنتها.

بعد مرور سبع سنوات من إقامتهم بالحي؛ كنتُ قد تناسيت أمرها تمامًا لولا حديث أحد الأصدقاء عنها بالمقهى الذي كنا نجلس فيه، أجمع الكل على جمالها الصارخ، كما أجمعوا على غرورها غير المرغوب فيه.

في اليوم الثاني؛ فوجئت بظهورها في أول الشارع الذي أعمل به، وبينما أقف بشرفة مكتبي أحتسي فنجانًا من القهوة مستمتعًا برذاذ المطر الذي

يداعب يدي ووجهي، لمحتُ طفلة صغيرة من أطفال الشوارع تقترب من سيارتها وانتبهت حواسي كلها توقعت أنها ستصرخ في الطفلة أو أنها لن ترد عليها كعادتها مع معظم أبناء الحي إلَّا أنني لمحتها تنزل من السيارة ثم تنزع عن كتفيها سترة جلدية ووشاحًا أنيقًا كانت تتدثر به ثم تركع على ركبتيها لتلبسهما للفتاة وسط ضحكات شعرت أن صداها يصل أذني رغم أنهما يبعدان عني بضع أمتار، بعد ثوان وضعت في يد الطفلة أوراقًا مالية وراحت تشير بسبابتها في حركات تحذيرية خمنت أنها تطلب فيها من الطفلة أن تتقي المطر وتعود إلى البيت الآن، فانصرفت الطفلة مُلوحة لها وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن.

عدت لمكتبي بوجه قد خالطه شعور عام بالحزن وبالكآبة لأنه تحدث بأحاديث سيئة عن هذه الفتاة الطيبة مرارًا، إنها مخلوقة رائعة كوالدها تمامًا لكن لا أحد يدري، لو حكى لي أحدهم أنه رآها تركع على ركبتيها ذات يوم لتدثر إحدى أطفال الشوارع بوشاح دافئ ما صدقته أبدًا، في النهاية تجاهلت رغبتي المُلحة في التفكير بها رغم أن صورتها كانت تطغي على كل تفكير آخر.

بعد هذه الحادثة بأيام قليلة، كانت عائدة من جامعتها في وقت متأخر من الليل، فجأة ظهرت عجوز بلهاء من سكان الحي كلنا نعلم الخبل الذي أصاب عقلها بعد وفاة ابنها قبيل زفافه بأيام، لدرجة أن نصف سكان الحي باتوا يتجنبونها ويمتنعون عن الحديث إليها لأنها لا تكف عن البكاء والعويل على العريس الراحل.

قالت لها العجوز في رجاء "ابني العريس لم يرجع حتى الآن، الوقت تأخر ساعديني في العثور عليه.. وتوقعتُ أنها ستركض خوفًا من المرأة أو أنها ستتجاهل وجودها وتذهب لبيتها في هدوء، لكنني رأيتها وهي تضع يدها في يد العجوز ثم قالت بقلق هيا نبحث عنه، بعد ساعة من البحث قالت للأم بأسف وهي تربت على يديها: سنكمل بحثنا عنه في الصباح ربما يأتي آخر الليل، سأكتب منشورًا مطولًا عن غيابه اطمئني لن أهدأ حتى أعثر عليه.

قالت لها العجوز بابتسامة عندما يعود سأزوجك إياه فلا يليق به إلَّا أنت، إنه ضابط خلوق وسيم يقيم الصلاة في أوقاتها ويحفظ كتاب الله كاملًا، تعرفين؟ نصف فتيات الحي هنا كن يتسابقن للزواج منه، فردت صاحبتنا قائلة في تمني:

- ليته يرضى بي عروسًا له!

ثم انصرفت وهي تواري دموعًا كادت أن تسقط، وتنهدتُ أنا في إعجاب كامل وبوادر حب لفتاة يظنها الجميع سيئة الطباع دميمة الخُلق لكن يكفيها بأنَّ الله يعرف حقيقة ما خلقها عليه.

(18)

آه يا الله هذه أنا "تسنيم"، التي قضت كل حياتها خلف نافذة مطبخها تراقب مطابخ وحياة الآخرين، كم أحرقتُ من "طبخة" وكم أهملتُ من "زهرة" كادت أن تتفتح، أكلتني الوحدة وآذاني غياب الونس واحتلني طلب واحد فلتمنحه لي يا الله..!

أريد شريكًا يأكل من طعامي ويستنشق عبير زهوري وتبدأ صباحتنا سويًّا بخبز ساخن وفنجان قهوة، يا رب أحببتُ حياة "ليلى" جارتي لها "أبُ" لا يبدأ صباحها إلَّا معه ولا تنتهي ليلتها إلَّا برفقته ولا يأكلان إلَّا معًا، بالأمس رأيته يصنع لهما الشاي ريثما تنتهي "ليلى" من غسيل أطباقها، آه فقط لو لم أكن يتيمة وكان لي أب!

- يا رب هذه أنا "ليلى" التي قضت جل حياتها خلف نافذة مطبخها تراقب مطابخ وحياة الآخرين، كم أحرقتُ من " طبخة" وكم أهملت من "زهرة" كادت أن تتفتح وأنا شاردة خلف زجاج نافذتي، هزمني اليأس وسكنتني تفاصيله واحتلني طلب واحد فلتمنحه لي يا الله، يا رب أريد زوجًا كزوج جارتي "نبيلة" يُسَكِنُ روحي ويهدأ من روعي، ويطمئن أبي القَلق على أمر زواجي دائمًا، يا رب تجاوزتُ الأربعين في صبر ورضا، لكِنّ أبي نفد صبره فلم نعد نهنأ بطعام أو بحديث إلَّا ويذكرني بما أنا فيه من تأخير زواج وكأنني أنا من كتبتُ قدري!

- يا ربنا هذه أنا أمتكَ "نبيلة" التي قضت كل حياتها خلف نافذة مطبخها

تراقب مطابخ وحياة الآخرين، كم أحرقتُ من "طبخة" وكم أهملت من "زهرة" كادت أن تتفتح وأنا شاردة خلف زجاج نافذتي، استوطنني الحزن وأحبني الألم واحتلني سؤال واحد: هل سأموت عقيمًا يا الله؟ أم أن لكَ قدرًا آخر، يا رب طفل واحد كابن جارتي "رتيل" يؤنس وحشتي ويسعد وحدتي وتنير ضحكته عتمتي.

- يا رحيم هذه أنا.. أتعرفني؟ "رتيل" التي قضت جل حياتها خلف نافذة مطبخها تراقب مطابخ وحياة الآخرين، كم أحرقتُ من "طبخة" وكم أهملت من "زهرة" كادت أن تتفتح وأنا شاردة خلف زجاج نافذتي، أجهدني التعب وهزمني الوهن واحتلني طلب واحد فلتمنحه لي يا الله، يا رب يقول الأطباء إنما هي أيامٌ بقيت لولدي "عُمر"، يا قدير هل سيشفىٰ عُمر أم صدق كلام الأطباء؟.. يا رب اجعله صحيحًا معافىٰ ك...

"وَلَا تَمُدن عَيْنَيْكَ إلىٰ ما مَتَعنا بهِ أزواجًا مِّنهُم" نصيحة ربانية ومنهجٌ إلهي، الإله العظيم يأمر عباده بأن يغضوا الطرف عما فضّل به بعضهم على بعض، فلا تشغل نفسك بالنظر إلى نِعم الآخرين معجبًا أو حاسدًا أو مقارنًا بما لديك فكلما اتسعتْ عيناك ضاق صدرك، وكلما أطلقت بصرك انقبض قلبك، فلا تَغبط أحدًا على نعمة يملكها فإنك لا تعلم ماذا أخذ الله منه، ولا تحزن على مصيبة ألّمت بك فإنك لا تعلم بماذا سيعوضك الله عنها وادعوه دائمًا أن يحاوطك بلطفه وعنايته ورحمته.

(19)

أول أمس؛ أعلنت إحدى الصفحات عن مسابقة جائزتها "سترة صوفية" ثمينة من النوع الرجالي، واختيار الفائز سيكون لصاحب أكثر تعليق، وللأسف تفاجأت بأن أبي قد وضع أكثر من مائة تعليق نصها "سترة رائعة أتمنى أن تهدوني إياها لقد وضعت أكثر من مائة تعليق!"

أصابتني الدهشة ودمعت عيناي وارتجفت أصابعي وأنا أكتب لهم متسائلة عن عنوانهم، أبي الذي لم يتذكره أحد منا بهدية منذ أن وُلدنا، أبي الذي لطالما حاول إسعادنا وتلبية رغباتنا ومنحنا كل ما نريد، لهذه الفستان الذي اختارت، ولهذا الهاتف الذي أعجبه ولهذه الحقيبة التي أرادتها بالإضافة لكل مصاريف الدراسة ومع ذلك كثيرًا ما شكونا له حالتنا المادية المتوسطة وتفوق زميلاتنا المادي علينا!

ويوم أن طلبت أمي منه أن يبتاع لنفسه سترة صوفية تقيه برد الشتاء قال لها: لا أشعر بالبرد ما دام الدفء يسري في أوصالكم!

اليوم ابتعتها له وأرسلتها عن طريق البريد وكتبت عليها "لقد فزت معنا بالسترة الصوفية التي أردت، كل الحب لك".

وراقبتُ رد فعله فوجدته قد كتب إلى صفحة المسابقة "كل الشكر لكم، لطالما حلمت بسترة صوفية رائعة تدفء أوصالي كهذه لكن الظروف المعيشية الصعبة منعتني أن أفعل، لكن لو أمكن تستردونها وتمنحوني عوضًا

عنها سترةً نسائية لابنتي الكبرى لأنها على مشارف دخول الجامعة وأرغب أن أهديها واحدة!

(20)

رغم أنوثتها الطاغية إلَّا أنها كانت طفلة بكل المقاييس، ضحكتها حديثها المتقطع الذي تفهمه بصعوبة، وقد لا تفهمه من الأساس، شرودها المفاجئ، ضَحِكها غير المبرر وتوقفها وسط الضحك لتبكي لأنها بحاجة للبكاء!

إنها "ليلى" مخطوبتي أو التي كانت كذلك، أذكرُ تلك المرة التي هاتفتني فيها في الثالثة صباحًا كي أحكي لها حكاية "سندريلا" لأنها تحبها، أو اليوم الذي أزعجتني فيه باتصالاتها المتكررة رغم علمها أنني أرأس اجتماع هام بالشركة التي أعمل بها، ظننت أن القيامة قد قامت أو أنها على وشك، اضطررت للرد تحت إلحاح اتصالاتها فما كان منها إلَّا أن طلبت مني أن أقول لها النكتة التي ألقيتها على مسامعها منذ أسبوعين لأنها أضحكتها كثيرًا!

عيناي نصف المغلقة صباحًا كانت تشي بي وتخبر جميع من بالشركة أنني لم أنم بشكل كاف، الكل يعلم قصة حُبنا ويراهن على استمراريتها!

برغم تصرفاتها الطفولية وتفكيرها الذي يتمركز حول حكاية البطة والقطة وسبونج بوب، إلَّا أنها كانت رقيقة هادئة وأنثى ناضجة، لكن لا أفهم ما الذي حدث، لماذا قبيل زفافنا بأسبوعين سئمتها هكذا؟! تصرفاتها الطفولية ورقتها المبتذلة وطريقتها ككل أصبحت مثيرة للغثيان!

لم أعد أحب قولها لي أنها تتمنى أن تترك فراشها الدافئ صباحًا لتعد لي طعام الإفطار، لم أعد أستسيغ قولها لي بأنها تخشى العالم بالخارج وأن قدميها

لن تطأ أرض الشارع إلَّا معي، لم يعد يعجبني حديثها عن تمنيها كي ملابسي وإعداد طعامي وسهرها على راحتي!

ليلى أصبحت مملة كل أمنيتها أن تصبح خادمة لي، ليست كجارتنا سلوى التي عرفني عليها جروب الواتس آب الخاص بالعمارة، إنها إحدى الساكنات الجدد، سلوى مثقفة وعميقة ويمكنها أن تحاورك في أي شيء حتى ولو كان "الغلاف الأيوني للمتكور الحراري!"

تحدثت سلوى البارحة عن خطة الولايات المتحدة للسيطرة على العالم، تَسيَّد حديثها المشهد، الجميع ينتظر كلماتها في شغف أو بعض نبراتها المسجلة في تمني، في النهاية قالت سلوى إنها ليست بحاجة لرجل تتزوجه أو بالأصح تخدمه، طموحاتها أكبر من ذلك، لا أدري لِمَ راودني طيف ليلى؟!

" ليلى" موجودة في كل النساء، كلهن يتمنين أن يتزوجن ويفتحن بيوتًا من ثم يصبحن خادمات، أما سلوى فواحدة، إنها ظاهرة لا تتكرر بسهولة أكاد أقسم أن كل ساكن بالعمارة أصبح يحلم بها زوجة له، خشيت ضياعها من يدي قطعت كل ترتيبات زواجي، فسخت خطبتي من ليلى، لا يستحقني سوى سلوى أنا بحاجة لامرأة قوية ومُثقفة مثلها، بعد أشهر قليلة كانت سلوى زوجة لي!

لكن هناك شيء ناقص، سلوى لا تتحدث معي عن أحلامها، تعبر الشارع إلى جانبي دون أن تحتضن يداها كَفي لأنها خائفة من الحافلات المسرعة، كلما طلبت منها أن نتحدث في أي شيء قالت أنها بحاجة للنوم

فـورائها عمل في الصباح الباكر، سلوى لا تزعجني باتصالاتها المتكررة أثناء العمل لأنها بحاجة للاطمئنان عليّ، ولا توقظني في الثالثة ليلًا لأحكي لها حكاية "سندريلا"!

أنا لا أشعر بالسعادة، ليذهب الغلاف الأيوني وأميركا للجحيم، أنا بحاجة للاهتمام، للرعاية، للحديث الطويل الدافئ، لكوب من القهوة صباحًا، لـ "اشتقت لك" عند عودتي من العمل، لـاتصال مزعج قرب الفجر، أقسم أنني بحاجة لأن يطلب مني أحدهم أن أقطع الاجتماع وألقي نكتة!

أنا بحاجة للثرثرة التي تزيد عن ساعتين وبحاجة لأن أحكي حكاية سندريلا لفتاة أظنها طفلتي، بحاجة لأنثى تحتضن يدي في الشارع، لأنثى لا تخشى شيئًا ما دامت معي، أنا بحاجة لـ "ليلى!"

لكن بعد كل ما حدث لن أصل إليها أبدًا ولن تصل سلوى إليّ، كنت أطمح بأن أصل للنجوم لكن لم أكن أعلم أنني بتهوري بذلتُ من أجلها القمر!

(21)

- يا أمي طلبتُ منك بنطالًا جديدًا من أجل العيد فلِمَ تعيدين ترقيع القديم، أنتِ امرأة بشعة كيف تزوجكِ أبي؟!

- يا أمي قلتُ لكِ أنني أشتهي اللحم، فلماذا طبختي لنا الفول ثانية، ألا نستحق أن تمنحينا بعض اللحم، أنتِ بشعة كيف تزوجكِ أبي؟!

- يا أمي قلت لك أنني أتمنى أن يكون في بيتنا مدفأة تبعث على الدفء كبيت صديقي حسام، أحضانك لا تفي بالغرض كما تزعمين، أنتِ أم بشعة كيف تزوجكِ أبي؟!

- يا أمي قلت لكِ أنني بحاجة لحذاءٍ جديد، لماذا تعيدين حياكة القديم، آه كيف تزوجت هذه المرأة يا أبي؟!

- يا أمي قال لي المعلم: دع والدتك تساعدك في استذكار دروسك، وعندما أخبرته أنكِ لا تجيدين القراءة والكتابة سخر مني التلاميذ وجعلوني أضحوكة، يا للبشاعة كيف تزوجت هذه المرأة يا أبي؟!

- اليوم مر على رحيلك عشر سنين، وها أنا يا أمي على مشارف إنهاء المرحلة الجامعية، جئت إلى قبرك كي أخبرك كم كنت أحمق وأنا صغير، وكم كنت جاهلًا لا أقدر النعم، ها أنا أتمنى أن ينصرم نصف عمري في مقابل حياكتك لحذائي القديم، وترقيعك لسراويلي المهترئة.

جئت إلى قبرك اليوم لأخبرك أنني أصبحتُ أفضل أطباق الفول على

قطع اللحم اللذيذة، وأن دفء أحضانك لا تعادله مائة مدفأة وأنك أم طيبة لم تعلميني شيئًا دراسيًّا أبدًا لكن الحياة بقسوتها علمتني نعمة أن يكون للمرء أم، ونقمة أن يفقد الواحد منا أمه فـهلا عدتي مجددًا من أجلي؟ من أجل طفلك الوحيد، عودي لأجلي ولو لليلة واحدة.. ليلة واحدة فقط!

أحادثك فيها عن كل وجبة لحم لذيذة طهوتها جائعًا لكني لم آكلها لأنني تذكرت طفلًا صغيرًا يركل بقدمه طبق الفول فتتحجر الدموع في مقلتي أمه لكنها مع ذلك تخبره أنَّ أطباق الفول نعمة سيدرك قيمتها يومًا ما، وها هو قد أدرك، أو لأحكي لك عن شاب اقتنى في الشتاء الماضي مدفأة لكنها منحته الدفء فقط ولم تمنحه الحنان فتوقف عن تشغيلها لأنه بحاجة لأنفاس وأحضان أم، أو عن رجل يملك عشرات السراويل لكنه مع ذلك ما زال يحتفظ بواحد مهترئ لأن أمه الطيبة أعادت حياكته ست مرات على مدار عام لأنها لم تك تملك مالًا يمكنها من اقتناء بنطال له فقالت له وهي تحيك بنطاله للمرة السادسة "سامحني، والله لو أملك لبعت عيني من أجل بنطال واحد لك".

تسلم عينك يا ماما والله لو أملك أنا لبعتُ عيني من أجل عودتك لي ليوم واحد فقط أقبل فيه قدمك، قدمك التي بترها القطار لحظة أن حاولت إنقاذي حال سقوطي من بابه ذات يوم فرحلت أنت بعد الحادث بيومين وبقيت أنا أحلم كل يوم بطفل يسقط من باب القطار وتفديه أمه فـينجوان معًا لكنني أصحو فأجده قد نجى وحده!

(21)

في الثلاثين من عمري تقدم وليد لخطبتي، كان شابًا جذابًا يملك من العمر تسعة وعشرين عامًا ولا يعيبه شيء -بحسابات مجتمعنا- سوى أنه أرمل ويملك من الأبناء طفلًا توفت والدته أثناء ولادته، فاضطر وليد للزواج مني بناءً على رغبة والدته، ورغم علمي التام بأنَّ بينه وبين زوجته الراحلة قصة حب عنيفة وافقتُ على الزواج منه خوفًا من شبح العنوسة الذي يطاردني منذ سنوات قليلة بناء على حسابات المجتمع الأخرق أيضًا!

في ليلة زفافنا كان أول ما نطق به" إذا أردتِ أن يحسن الله إليكِ فأحسني إلى حسام، إنه طفل يتيم" بعد عام من زواجنا رزقتُ بطفل يشبه القمر لكنه مصاب بثقب في القلب فانصرف جل اهتمامي تجاه وليدي المريض، مما دفع زوجي إلى تعنيفي وتوبيخي ذات مرة لأنني أهملتُ رعاية "حسام" فانزلقت قدمه وكسرت دون أن أنتبه له، وازدادت المسألة حدة لأنني فعلًا لم أنشغل عنه عامدةً وإنما لأنني ذهبت بطفلي إلى المشفى بعد فقده لوعيه جراء حالته الصحية المتأخرة.

في النهاية ذهبتُ غاضبة إلى بيت والدي، فسمعتُ كل ألوان السخط على وليد وطفله وكل أشكال الغضب منه، لكنني مع ذلك افتقدتهما وشعرت أنني بحاجة ماسة إليهما، فغادرتُ بيت أهلي دون إذن منهم، حسام قدمه مكسورة الآن بالتأكيد يحتاج إليّ، يا الله كيف أعماني غضبي وتركته في هذه الظروف.

عدتُ لمنزلي فوجدت وليد قد تغيب عن عمله أيام ثلاثة ليهتم بالولد، وبعد عتاب لذيذ بيننا أصحبني لبيت والدي حتى نعتذر منهم وننهي هذا الأمر، كان رجلًا عاقلًا حكيمًا على الدوام إذا تحدثت معه شعرت أنه أعقل أهل الأرض وإذا تعاملت معه عن قرب أدهشتك أخلاقه الحميدة وطباعه الحسنة التي أوشكت على الفناء هذه الأيام.

بعد هذه الواقعة بخمس سنوات وبينما كنا نجري جراحة لصغيري في المشفى هبط وليد إلى الشارع ليجلب لي طعامًا لأن الإجهاد والتعب كاد أن يقضي علي، انتظرته طويلًا لكنه لم يعد حتى هذه اللحظة، سيارة طائشة تكفلت بإنهاء حياته فرحل الرجل الشهم قبل أن يطمئن حتى على جراحة ولده.

في لحظاته الأخيرة وعلى أرضية الشارع أمام المشفى أوصاني كثيرًا على الأبناء لكن آخر ما نطق به كان "إذا أردتِ أن يحسن الله إليكِ فأحسني إلى "حسام" لقد فقد والداه الآن".

رحل عني وليد، كان نعم الزوج، لم أشعر بحبه لي مرة واحدة لكنه كان رحيمًا وخلوقًا وعادلًا، وهبت نفسي لتربية الأولاد ولم أستمع لنصائح الأقارب بترك حسام في دار للأيتام أو عند أهل والدته، عاملته وكأنه طفلي وفاء لذكرى حبيبي وليد وعملًا بوصيته، تحملت أمر تربيته وعناده ومشاكله وظروف دراسته وكأنه ولدي تمامًا رغم أنه لم يعاملني كأمه في بداية الأمر.

حاولت التقرب منه فعرفت أنه يتعمد الابتعاد عني لأن الأقارب أخبروه

باستعدادي للتخلي عنه، أقسمت له أنني لن أسمح له بمغادرتي أبدًا فاطمئن، قضيت أيامًا جميلة معهما كانا نعم الأخوين رغم اختلاف الأم ورغم مرض طفلي الذي رافقه حتى أكمل خمسة وعشرين عاما، ثم في النهاية انتقل إلى رحمة الله، وها أنا أم جريحة فقدت ولدها الوحيد ولا مؤنس لها سوى حسام.

في حفل تخرجه من كلية الطب، أهداني نجاحه وقبَّل قدمي أمام الجميع، لا يناديني إلَّا بـ "جنتي"، ولا يهنأ بنوم إلَّا عندما يطمئن عليّ، بالأمس كان افتتاح العيادة الخاصة به وأعلن أمام جميع الحاضرين أنه سيعالج كل مريض يذهب إليه في الجمعة من كل أسبوع مجانًا صدقة جارية على روح أبيه وأخيه الوحيد.

آه يا حسام يا لطف الإله بي ورحمته عليَّ، يا وليد قلبي الذي لم ألده ويا نصف روحي التي ضاع نصفها يوم أن رحل عني أبوك وأخوك.

(22)

- "نهلة محمود سالم" براءة!

- براءة..؟! كيف ذلك يا سيدي؟

- لقد اعترفت صاحبة المنزل أخيرًا أنكِ مدرسة -الرياضيات الخاصة بابنتها - التي استدعتك لأول مرة يوم أن اقتحمنا المنزل لارتكاب أصحابه أفعالًا مخالفةً للآداب.

- اعترفت!

اعترفت بعد ماذا! بعد أن ماتت أمي لصدمتها أن ابنتها تمارس أفعالًا مخلة بالآداب؟ بعد أن طرد أهل الحي أبي -الرجل العجوز الكفيف- لأن ابنته ألحقت العار بحيينا الشريف؟ فرحل وترك بيته وحياته وذكرياته ولم أعد أعلم عنه شيئًا! اعترفت بعد ماذا، بعد أن قضيت أربعة وتسعين يومًا في سجنكم هنا وسط القتلة والمجرمين وعديمي الشرف؟!

لا لا لا الحكم بالبراءة وحده مُجحف وغير عادل، أعيدوا أمي للحياة واعثروا على أبي وامنحوني قلبًا آخر غير القلب الذي مزقتموه هنا.

- أعتقدُ يا آنستي أن الأمر جيد ويحتاج إلى سجدةِ شكر بدلًا من وصلة النواح هذه!

خَرَجتْ إلى الشارع تقفز في عقلها عشرات التساؤلات، ماذا أفعلُ يا رب وإلى أين أذهب، هل إذا عدتُ لحيينا سيقتنعون بأمر براءتي، لا لا سيقطعني

أهل الحي إربًا إربًا قبل حتى أن أتمكن من شرح أي شيء، يا ويلي! أطرق باب مَن؟ لقد غُلِقت كل الأبواب في وجهي.

هل يتحتم عليّ أن أبدأ في البحث عن أبي؟ لكن من أين أبدأ البحث، يا رب إنه رجل كفيف والعثور عليه أمر صعب ومستحيل، أين سأبيت الليلة يا رب؟ هل برأتني من قولهم -فتاة الشارع- وفي النهاية رغمًا عني تعيدني إليه!

لفت نظرها بغتة مرور رجل عجوز أعمى إلى جانبها يرتدي نظارة سوداء، وبيده عصا يستكشف بها الطريق في حذرٍ وتردد، وبلا وعي تقدمت إليه وسألته بحنان بعد ما داهمتها ذكرى أبيها: إلى أين تريد أن أوصلك يا عم؟

- لا أعلم والله يا ابنتي، لكنني أنتظر فتاةً طيبة هنا.

- صِفها لي وسأبحث لك عنها.

- لا أستطيع وصفها، لم أرها من قبل.. لكنني أشعر أنها هنا، ستعرفني هي.. فأبيها يشبهني إنه أيضًا كفيف!

ازدردت ريقها في صعوبة فأردف:

- لقد توفي ابني الوحيد منذ ثلاثة أسابيع.. لم يكن لي سواه، تخيلي كان أبي لم أكن أنا أبيه، خرج ليجلب لي دواءً قبيل حفل تخرجه بأيام، لم يعد بالدواء حتى هذه اللحظة، صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق فتركني مكسورًا وحيدًا بلا راع أو معيل، كلما زارني في الحلم عاتبته لرحيله المفاجئ دون

سلام أو وداع، دون عناق واحد حتى سوى ذلك العناق القاتل قبيل دفنه بلحظات!

بالأمس رأيته في الحلم، شكوت له وحدتي وضيق أمري وهواني على الناس.. فطلب مني أن أترك فراشي وأصلي لله داعيًا أن يفرج كرب ابنتي الجديدة وأسأله أن يفك سجنها لئلا تقضي عمرها مسجونة خلف القضبان وهي العفيفة والبريئة.. فقبلتُ البشرى منه.

تعرفينها يا ابنتي؟ اسمها "نهلة" طلب مني أن أنتظرها صباحًا في هذا المكان، أنتظرُ هنا منذ الصباح لكنها لم تأتِ، أخشى أن أعود إلى بيتي وحيدًا وأن يأتيني "محمود" الليلة فلا أبشره بأن الله عوضني عن رحيله وقبل دعائي لابنتي الجديدة.. فعادت معي إلى البيت.

(23)

"سيرينا مايكل"..

طبيبة ملحدة كانت مسؤولة عن رعايتي بمشفى باريس التخصصي لعلاج أمراض الرئة والقلب عندما كنتُ في العشرين من عمري.

لم تفوت فرصة للسخرية مني أو لممارسة عقدها النفسية معي، ورغم أنها طبيبة أو ملاكًا للرحمة كما يدعون إلَّا أنها كانت تتعامل معي بأخلاق شيطان مريد فلا تمنحني جرعات دوائي إلَّا بعد أن تطلبها أمي عشرات المرات ولا تعيد فحصي إلا بعد ميعاد الفحص بأيام!

حتى جاء ذلك اليوم الذي قدمت فيه والدتي شكوى ضدها لإدارة المشفى لمعاملتها الرديئة لنا، مما استدعى "سيرينا" للجلوس معنا ومحاولة إنهاء الأمر بالتصالح، بعد مدة قصيرة من الحديث اكتشفنا أنَّ "سيرينا" تعاني عقدة نفسية تجاه أي مسلم، ولأننا مسلمين بغير إسلام ولا نعلم عن ديننا شيئًا كما هو مُفترض قالت لها أمي:

- في الحقيقة لا علم لدي للرد على شبهاتك التي طرحتيها عليَّ الآن، لكن الدين ميراث ونحن ورثنا الإسلام عن أجدادنا لكننا لم نرث الإرهاب والعنجهية والتخلف لذا لم نعترف بالحجاب الجاهلي حتى الآن!

منذ تلك اللحظة نشأت بيننا وبينها علاقة صداقة وطيدة، حدثتها عن رسول الله حديثًا بسيطًا قدر استطاعتي، ولأن علمها أقوى وحجتها أبلغ نجحت في إقناع فتاة صغيرة مثلي بالإلحاد، كانت تردد دائمًا: ليذهب

إسلامك إلى الجحيم غير مأسوفٍ عليه، فأكررُ خلفها ما تقول رغم معارضة أمي الجادة للأمر إلَّا أنني كنتُ أحب سيرينا وأخفي عن أمي تفاصيل لقاءاتي بها.

لم تدم صداقتنا طويلًا، سافر والدي إلى ألمانيا طبقًا لظروف عمله وسافرنا معه، انقطعت أخبار "سيرينا" تمامًا ولم أعد أعلم عنها شيئًا، وعدت إلى طبيعتي مهتزة المبادئ ومسلمة بلا إسلام رغم محاولة والدتي الجادة لِتعلم الدين والالتزام به بعد ما أساءها تفكيري الجاد بالإلحاد وترك الإسلام ذات يوم.

أذكر يوم أن كتبتْ رسالة مُطولة للمركز الإسلامي بألمانيا تطلب منهم فيها أن يشرحوا لها كيفية الصلاة فأرسلوا لها مقاطع فيديو مُفصلة كانت تبكيها بكاء هستيريًّا كلما وقفت للصلاة كما يطلب منها مصمم الفيديو.

بعد يومين تقريبًا أخبرتهم عن رغبتها في حفظ سورة الفاتحة وقصار السور فطلبوا منها أن تذهب إلى المركز ليلقنوها سورة الفاتحة وبعض التعاليم هناك، حاولت إغرائي بالذهاب معها إلَّا أنني رفضتُ رفضًا تامًا بعد ما رأيتها تضع غطاء خفيفًا تخفي به شعرها إلَّا أنه مع ذلك لم يختف بشكلٍ تام.

حاولت أن ألقي عليها بعض محاضرات "سيرينا" عن الحجاب الجاهلي، والصلاة الوثنية لإله لا نعرف إن كان موجودًا فعلًا أم أنَّ وجوده محض أوهام، انصرفت مسرعةً من أمامي وهي تردد أدعية صادقة هدفها أن يهدينا الله إلى طريقه الصحيح، فأشفقتُ عليها مما هي مُقبلة عليه!

بعد أقل من ساعة وبينما أتصفح هاتفي قرأتُ أخبارًا عن حادثة سيارة على الطريق الجانبي خلف المركز الإسلامي بالمدينة، هاتف خفي دفعني للشعور بأن صاحبة السيارة أمي لكنني بكل قوتي حاولت التغلب على هذا الشعور.

بعد دقائق أكدت الجهات المعنية الخبر، الحادثة كانت بالفعل من نصيب أمي السيدة المسالمة الطيبة رحلت دون استعداد لرحيلها، فكرهت المركز الإسلامي والطريق المؤدية إليه وكل ما يتعلق بالإسلام بصلة.

حاولت معاودة الاتصال بسيرينا ونجحتُ في ذلك لمرة واحدة، تحدثنا عن أمي وعن رحيلها المفاجئ، عن الإسلام والإلحاد وعن الإله الذي يقبض الناس وهم في الطريق ذاهبون إليه!

وكالعادة انقطعت أخبار سيرينا وعجزت عن التواصل معها من جديد، كان آخر اتصال بيننا منذ تسع سنوات، لم أبرأ فيهن من رحيل أمي ولم يعثر قلبي القلق على شيء بإمكانه أن يبعث الطمأنينة فيه، وها أنا في الثلاثين من عمري وعلى قيد سنتيمترات من الموت بعدما أصيبت حنجرتي بأورام يصعب عليَّ العيش بها لأكثر من شهور ستة!

يقرر والدي الذهاب بي إلى مكة لأداء العمرة والدعاء لي بالشفاء أمام الكعبة هناك، ساقني القدر لصلاة العشاء إلى جانب إحداهن، أزعجني بكاءها خلال السجود لا أفهم لِمَ كل هذا التذلل، حاولت الإصغاء لكلامها المتقطع لكنني لم أفهم منه شيئًا.

بعد انتهاء الصلاة نظرت إليها مطولًا، شعرت أنني أعرف هذا الوجه الملائكي جيداً لكنني لم أنجح في تذكر صاحبته حتى سمعتُ تمتمتها:

يا رب نجحت "سيرينا مايكل" في إبعاد المئات عنك، لكنها فشلت في كل شيء إلَّا الوصول إليك.. يا رب اقبلني وتب علي واغفر لي ما قدمت يداي!

رجفة عظيمة هزت جسدي، ولقطات فلاش باك سريعة أعادتني للوراء، سيرينا مايكل الطبيبة الملحدة، أمي، سريري الأبيض بالمشفى، إشهار إلحادي أمامها، أيعقل أن يجيء الله بها لتعلن إسلامها أمامي الآن؟!

اقتربتُ منها، مسحت دمعة خرجت متلصصة على خدي لترى ما الذي يحدث، قلت لها بصوت يخنقه البكاء: ليذهب إلحادك إلى الجحيم غير مأسوفٍ عليه!

غزة 2023.

إن شهدائنا الذين يرتقون كل ساعة في غـزة سيخلدهم التاريخ كأعظم الشـهداء في أقدس المعـارك وأنقى الرايات التي تقاتل في هذا الزمان، فهنيئًا لكم هذا الشرف العظيم.

وإن كل متفرج على عـذابات شعبنا فسيلحقه العار ويوصم بالخزي ولن يكون في ملك الله إلَّا ما أراد الله، وإن إيمان أبناء شعبنا ورسائلهم من تحت الركام لهي خير دليل على عظمته وكبريائه واستحقاقهم لوسام شرف الدفاع عن مسرى نبينا والرباط في الأرض المقدسة المباركة وما النصر إلَّا صبر ساعة والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

- أبو عبيدة.

(1)

- تعرفي سارة؛ كان من المفترض أن يُقام زفافي منذ شهرين، لظروف مرض والدي أجلناه إلى بداية الشهر القادم، شقة الزوجية جاهزة تمامًا عملتُ أنا وخطيبي على تجهيزها لأكثر من ثلاث سنوات.

مع بداية القصف، كنت أبكي كل لحظة خوفًا من فقدان بيت الزوجية الذي لم نُزف إليه رغم رغبتي القوية وانتظاري الشديد لهذا الزفاف.

كان يقول لي باسمًا في كل مرة ما دُمنا معًا، فداك ألف بيت.

أكتبُ لك الآن لأخبركِ أنَّ خطيبي استشهد أول أمس وبقيت شقتنا رابضة كما هي.

شاهدة على زفاف لم يتم، وفتاة لن تتزوج أبدًا وعريس رَحَلَ قبل أن يكون عريسًا.

- علياء.

(2)

"مُعتصم" جارنا خطيبي منذ قرابة الثلاثة أعوام كل حلمه في الحياة أن يصبح أبًا ويكون والد لـطفل يسميه "عمر"، كان من المفترض أن يُقام زواجنا في العاشر من أكتوبر الماضي إلَّا أن العائلة كلها رفضت إقامة الزفاف في مثل هذه الظروف الصعبة.

تحت ضغط معتصم وتصميمه على الزواج لا سيما أن بيت الزوجية جاهز تمامًا وافق الجميع بعد عناءٍ على انتقالي إلى شقته بلا زفاف أو زغاريد أو دعوات حضور فقط أنا وهو وقطتي بعد أن صلينا العشاء في مسجد الحي.

قضينا معظم الليلة في صلاة طويلة ابتهالًا إلى الله كي يفرج عنا ما نحن فيه، قبيل الفجر استلقيتُ إلى جانبه وهو يصلي لأنني أشعر بالتعب ولم يكد النوم يتسلل إلى عينيّ حتى أحسستُ بالمبنى كله ينهار على رأسي وصدري.

بعد مرور ساعات طويلة تحت الأنقاض قضيتها كلها في النداء على معتصم والتمسك التام بأحد ذراعيه أجابني أخيرًا بصوت متقطع لاهث الأنفاس قائلًا "سامحيني على رحيلي.. لم أكن أرغبه والله".. وراح يتلو آيات من القرآن في وهَن وتعب واضح.

بعد دقائق طويلة لا أعلم عددها سَكَتَ الصوت المتقطع وبَرَدَ الجسد وتيبس الذراع الذي كنت أحتضنه ليطمئنني وسط هذا الخـراب والرعـب الهائل، ورحل معتصم سريعًا كما تزوجني سريعًا.

مُعتصم حبيبي الله يعلم مدى صبري على رحيلك ومدى وجعي وتألمي

جراء هذا الرحيل القاسي لكن أبشرك، فقد حدثت المعجزة، لقد أخبرتني الطبيبة منذ لحظات أنني أحمل في أحشائي طفلًا منك، مُعتصم الحبيب مبارك للتو أصبحت والدًا لطفل!

- رحمة.

(3)

على مقربة من قصف يهودي في شارع ما ، يُخرج أحد الشباب "فستان سواريه" ويقول: منذ شهر "تجادلت معي كثيرًا فتاة ما حول سعر هذا الفستان.. قبل زفافها بأيام، كانت بارعة في الفصال كبراعتها في إظهار بهجتها وتحمسها لزفافها.

لقد حجَزته بربع ثمنه وابتسامة الابتهاج تعلو وجهها وخطيبها، لقد أخبرته أنها انتصرت على البائع وأنها ستكافحُ معه ليقيما بيتهما سويًّا بأقل تكاليف حتى إذا قصفه الاحتلال فلا يحزنا كثيرًا عليه.. فسألها مُتعجبًا ما لنا وللقـصف الآن؟!

لم أفهم ابتسامتها الحزينة حينها، لكنني سمعته يطمئنها بكلام لطيف فدعوت لهما أن يسعدهما الله وينجبا طفلًا صالحًا، فقال الشاب ضاحكًا بل أرغب بعشرة من الأبناء.

عرسها كان من المفترض أن يقام أول أمس، لماذا لم تأتي وتأخذ الفستان؟!

أتمنى أن تكون لا زالت على قيد الحياة هي وفتاها الوسيم، أتمنى أن يمهلهما القـصف ليلة واحدةً حتى من الزفاف والبهجة والحب.

إذا كانت لا زالت حيةً ترزق، فلتأتِ الآن وتأخذ نسخة من فستانها مجانًا أو أي فستان آخر نجى من القـصف لأن فستانها الجميل قد تمزق جزء منه، تعالي وسأعيد حياكته من جديد خصيصًا لك.

أتمنى أن تأتي وتأخذيه بدلًا من أن يظل هذا الفستان حلم فتاة حلمت أن ترتديه لكن شاء القدر أن ترتدي كفنها بدلًا منه، أتمنى أن تسكن بيتًا زوجيًا جميلًا مع حبيبها وينجبا عشرة من الأبناء بدلًا من أن تضم أحدهما جدران القبر.

تعالي وخذيه مجانًا هو لكِ طوال العمر، شرط أن تهدي المدينة فرحًا وحناءً وزغاريدًا وتقيمين فيها عُرسًا كبيرًا، بدلاً من المأتم اللانهائي الذي نعيش فيه، خذيه مجانًا وامنحي الصغار هنا يومًا واحدًا من الفرح حتى نقوى على مواصلة الجهـاد من جديد.

تعالي وطمئني بائع الفساتين القَلِقَ على عرسك رغم أنه لم يقلق على عرسه نفسه، الفستان في حفظٍ حتى تأتي وتلبسيه، وبذلة خطيبك هدية من عندنا جمعتهما سويًّا في علبة واحدة لعروسين لم يعرفا لوعة بائع الفساتين الذي اعتاد أن يهدي الناس فرحًا ويأمل اليوم أن تعاملونه بالمثل فكونوا على قيد الحياة ولا تخيبوا أمله.

(4)

منذ أيام تعاهدت ماما مع جارتنا أن ترعى كل واحدة منهن أطفال الثانية حال رحيل الأخرى، أقسمن على المصحف أن ترعى الناجية فيهن عيال صديقتها بما يرضي الله فلا يستشعر طفل فينا اليتم أبدًا.

اليوم استشهدت ماما، دفناها إلى جانب جارتنا، والمصحف وحده من ظل شاهدًا على والدتين لو لم يقتلهما القصف لقتلهما الرعب خوفًا من أن يقضي أطفالهن حياة مسلوبة الأمومة.

ماما، عمتو منال..

لا تقلقوا، أنا وأمير ونور وندى رحلت أمهاتنا وبقي معنا المصحف، به شيء منكن، به رائحة من عطف وحنان الأمومة، نحتضنه كل لحظة كما تحضن الواحدة فينا جسد ماما.

- رؤىٰ.

(5)

في مثل هذا اليوم منذ عام تمت خطبتي لـ طارق ابن خالتي، صنعنا حفلًا جميلًا حضرته جميع العائلة، أبي وأمي وإخوتي الثلاثة وأبنائهن، وعمي وأولاده وخالتي وأخوالي جميعهم، ألقى الشيخ كلمة طيبة عن الزواج وطلب منهم في نهاية حديثه أن يوجه كل واحد منهم لي كلمة، كلهم بلا استثناء قالوا بأنهم يتمنون لي السعادة!

أجلس الآن في المدرسة وسط نساء لا أعرف واحدة منهن، أتذكر يوم خطبتي يوم أن التف حولي أكثر من مائة شخص كلهم تمنى لي السعادة فرحلوا شـهداء عصبة واحدة وبقيتُ أنا هنا حزينة وحدي، أذكر الراحلين واحدًا واحدًا ولا أعرف على أيهم أبكي، يا رب كل هذا الخراب كثير على روح واحدة، مائة شخص يا الله كيف يبكيهم شخص واحد!

– هبة.

(6)

سارة؛ هذه يد ندى..

وجدتها تحت الأنقاض بعد ما دفـناها بيومين، كنت أحفر وأنا أردد يا رب اشتقت لـندى أختي، يا رب ارسل لي شيئًا يهدئ قلبي فوجدت يدها ظاهرة أمامي وكأنها تشعر بي وتسمع دعائي.

ندى الجميلة الطيبة طوال عمرك كنتي تواسيني لكن نسيت أن تواسيني على رحيلك، ويدك هذه كثيرًا ما ربتت على كتفي لكنها ما ربتت عليه يوم شـهادتك، قلبي زعلان منك يا روح أخوك.

– احتضنتُ يدها وأنا أبكي، كنت أفكر كيف سأدفن يدها بمكان غير الذي دُفنتْ فيه، تخيلتها في الجنة بيدٍ واحدة في حين أن كل الشهداء بيدين، فبكيت.

قررت الذهاب لبيت الجيران لإبلاغ أمي بما وجدته لكن قبل أن أصل إليه كان بيتهم قد تم قصفه ورحل جميع من فيه بما فيهم أمي.

اطمئني يا سارة، يد ندى دفناها بحضن أمي، الله رحمن رحيم، ما رضي لكفها أن تكون وحيدة.

ندى، في حياتك ما كنتي وحيدة أبدًا، لكن بفقدك أنت وأمي أصبحتُ في الدنيا وحيدًا.

ندى، لن تصبحي رقمًا أبدًا، سأحكي عنك لكل العالم، ندى أختي الوحيدة رحلت يا عالم، ندى حبيبتي وروح روحي وقلبي أنت وماما.

- عُمر، أخوك الصغير وابنك الكبير ندوشة!

(7)

بالأمس بعد ما قصف شارعنا كله سمعت ابن الجيران يردد..

لا، أنا مش راح أمشي من هون قبل م نطلع جسد عمار أخي من تحت الردم.. هو وصاني بهيك إنه لو مات ما أتركه وحده تحت الأنقاض لأنه بخاف.. عمااااار ما تخاف، حاسس بي؟ أنا هون بضل قاعد ليوم، ليومين، لسنة لحتى تطلع.

- جواد.

(8)

سألته منذ خمس سنوات ونحن نتمشى بحديقة المدرسة: ما هي أمنيتك؟

فقال أن يصل عمري سريعًا لثلاثين عامًا.

سألته مندهشًا:

- لِمَ؟

فأجابني لأن بابا سيخرج من المعتقل بعد عشر سنوات وأنا أشتاق له وأتمنى أن أحتضنه.

- في بداية الأحداث قال لي إذا استشهدتُ أنا فحافظ أنت على حياتك، إنني أرغب أن تبلغ هذا الحضن لـ بابا، وعانقني عناقًا قويًا ثم رحل باكيًا وهو يستحلفني ألَّا أنسى!

اليوم وأنا أحضر تكفينه كنتُ أردد بصوت عال..

"عمر، اطمئن لن أنسى أبدًا.. يومًا ما سيُفرج عن أبيك وسأبلغه عناقك والله.. سأعانقه مرتين مرة لك، وأخرى لي لأنني لم أعانقك بشكل كاف خلال صحبتنا معًا، وأفتقدك منذ هذه اللحظة وأسأل نفسي كيف يمضي المرء حياته بعد أن دفن بيديه أعز صديق له؟"

- ريان.

(9)

قالت لي وأنا أصطحب "سدرة" إلى المدرسة في أول يوم دراسي لها "هاتيها لأقبِّلها"..

– سيدة عجوز تسكن على أول شارعنا صاحبة وجه مُشرق أبيض، لا تكف عن الجلوس صباحًا في شرفة بيتها لتقرأ القرآن بصحبة كأس من الشاي، توفي زوجها منذ عامين فعاشت بعده وحيدة لأنها حُرمت تمامًا من الإنجاب.

كانت تصنع لسدرة الفطائر كل يوم وتنتظر مرورنا أمام شرفتها لتعطيها للصغيرة، قلتُ لها ذات يوم "والله لن يزف سدرة إلى بيت زوجها إلَّا أنتِ فلن نجدَ أحن عليها منك".

فقالت مُبتهجة: "لقد حرمني الله من الأبناء لكنه في آخر عمري مَنَّ بكما عليَّ، لا تحرميني منها الله يرضى عنك"

فاتفقنا أن تبيت البنت عندها كل ليلة جمعة.

منذ شهر تقريبًا عرفتُ أن سدرة طلبت منها فستانًا وردي اللون، استحيت الصغيرة أن تطلبه مني لأنها تعلم الضيق الذي فرض نفسه علىَّ بعد رحيل زوجي في حادث ما.

بالأمس ونحن نحفر تحت الردم لنخرج جسد "سدرة" كانت السيدة تصرخ قائلة "يا سدرة جبتلك الفستان الوردي يَما قومي البسيه يَما يا ريت ما عرفتك يَما يا ريت ما شفتك أبدًا"

الفستان الوردي الذي لم يُلبس أبدًا دفنـاه في كفــن سدرة..

"سدرة حبيبتي لقد صممتُ على أن يدفن الفستان معك لأحقق لك أمنيتك لأنك حُرمت تحقيقها هنا، عندما تستفيقين في الجـنة البسيه واطلبي من إحدى نساء الجنة أن تصففَ لك شعرك الذي شوهه القــصـف ثم اذهبي واسألي عن بابا، احتضنيه نيابة عني، توسطي لي عند الله أن يلحقني بكما عاجلًا، عاجلًا يا سدرة".

- أم سِدرة.

(10)

سارة أستحلفك بالله أن تكتبي عني لو استشهدت، أخشى أن أرحل دون أن يبكي على رحيلي أحد.

لن أدّعي الشجاعة وحب المـوت كما كل الناس هنا على عكسهم جميعًا أنا خائفة وأحبُ الحياة.

- "هدى الياسين".. الحامل لأول مرة بعد صبر طالت مدته لأكثر من سبع سنين.

(11)

حسناء الطيب، إحدى تلميذاتي بالصف توفت أمها أثناء ولادتها ورحل والدها شهيدًا في اشتباك عنيف بينه وبين أحد جنود الاحتلال أمام المارة في الشارع وأمام حسناء ذاتها البالغة من العمر حينها سبع سنوات.

لن أنسى أبدًا وصية جدتها العجوز التي كانت تصحبها كل صباح إلى المدرسة قائلة بفخر: "ابني الشهيد يوصيكم بالدكتورة حسناء خيرًا فإياكم أن تخذلوا روح الشهيد".

أخبرتني حسناء ذات يوم وأنا أهندم لها شعرها أنها ترغب بأن تصبح أشهر طبيبة عالمية لأمراض القلب حتى لا يعاني أحد معاناة والدتها التي لم ترها أبدًا.

بالاتفاق مع مُعلم مادة العلوم طبعتُ صورتها الجميلة على بطاقات بيضاء مكتوب عليها "ندعوكم لحضور افتتاح عيادة الدكتورة حسناء الطيب أشهر جراحي القلب في العالم والوطن العربي وذلك في عام 2035 إن شاء الله".

وقمنا بتوزيعها على جميع أصدقائها بالصف.

مع بداية الأحداث أرسلت لها رسالة اطمئنان كما فعلت مع جميع تلاميذي فكتبت لي حسناء بأنها ترغب أن تذهب إلى الجنة لأنها تُحب أن ترى أبيها وأمها لكنها ترغب أكثر في إكمال مسيرتها هنا لأنها تُحب أصدقاءها في المدرسة وتُحلم أن تصبح ذات يوم طبيبة في المشفى.

منذ أيام وهم يستخرجون جسد حسناء من تحت الأنقاض وجودها نائمة في حضن جدتها وبين يديها بطاقة بيضاء تحمل صورتها واسمها وحلم بريء لن يتحقق أبدًا.

لكن عزائي يا صغيرتي أنني أسعدتك بتحقيق مزيف له ذات يوم.

لا تحزني يا حسناء الجميلة لفراق صديقاتك لأنهن جميعًا قد رحلن معك، ولا تأسي لحرمانك من المدرسة لأنها قد هُدمت بالفعل، ولا على حلمك الجميل بممارسة الطب، لقد دمروا المشفى وقتلوا المرضى جملة واحدة وما من مريض هنا لتعالجيه.

- حنين جمال.

معلمة رياضيات.. كتبت رسالتها هذه فور قصفهم لمستشفى المعمداني.

(12)

سارة؛ هذا خاتم خطبتي، منحتهُ لخطيبتي منذ عام على وعد أن نتزوج عندما ييسر الله لنا الأمر، منذ يومين صممتْ أن تعيد لي الخاتم لأنها حلمت بطفل من الجنة يقول لها زفافك عندنا بعد غد وفسرته بأنها بعد غدٍ سترحل شهيدة.

بعد رفضي لاستعادة الخاتم استحلفتني أن أبيعه وأتصدق بثمنه بعد أن تنتهي هذه الحرب، بالأمس ونحن نحفر لاستخراج جسدها من تحت الردم لم نجد الخاتم لأننا لم نجد يدها ولا رأسها ولا قدمها اليمنى حتى هذه اللحظة.

- ليث.

(13)

أحمد أخي، شاب جميل يحفظ القرآن كله، يبدو وكأنه يشبه الملائكة خَلقًا وخُلقًا بكيتُ له بالأمس خوفي من الموت وشكوت له استهدافهم للنساء والأطفال، وكعادة الجميل أحمد طمأنني ثم بعد أربع ساعات متواصلة عاد لي بوجبة لحم كان يعلم أنني أشتهيها وأقسم عليَّ أن آكلها كاملة وسط مزاحه وضحكاته اللطيفة.

لم يَذق معي اللحم رغم كل محاولاتي ورغم أنني كنتُ أعرف أنه جائع ويرغب بالطعام، إلَّا أنه خصني به لتصوره أنني سأرحل خلال ساعات فحاولَ ألَّا أرحل جائعة.

وهم يجهزونه للدفن كنت أسمع صوت صديقه "عمر" وهو يهتف صارخًا "كان معي منذ ساعتين يا عالم، اقترض مني مالًا لأنه يشتهي اللحم ويرغب حقًّا أن يأكله".

- حبيبي أحمد اقترض المال ليطعمني أنا ثم رحل هو جائعًا.

- بَتول.

(14)

– صُهيب أخي يا سارة، تسع سنوات كل أمله في الحياة أن يشتري طائرة ورقية، سقـط عليه البـيت منذ سبعة عشر يومًا ولم نعثر على جســده حتى هذه اللحظة.

منذ أسبوع في المدرسة التي نزحنا للسكن فيها قاموا بتوزيع طائرات ورقية وألعابٍ لكل طفل فيها.

– صُهيب حبيبي، لقد طلبت منهم أن يمنحوني طائرة ورقية ولعبة لك وسط دهشة واستغراب الجميع.. قلتُ لهم ربما يخرج من تحت الأنقاض حيًا أو ربما أجده ذات يوم عائدًا إلى حيينا يبحث عنا.

عُد لأجلي يا صهيب، سمعتُ بابا يسأل الله أن يريه جسدك ليدفنك ويستريح.. لكنني احتضنت الطائرة واللعبة وأقسمتُ له غاضبةً منه أنك ستلعب بهما قريبًا.

صُهيب؛ أنتظرك بألعابك على ركام البيت كل يوم ولا أمَلّ النداء عليك، رد عليّ يا حبيبي.. اجعل صهيب يرد عليَّ ذات مرة يا رب.

– مارية.

(15)

رحلت ماما شـهيـدة منذ عشرين يومًا، قبيل موتها أوصتني مرارًا على "عهد" أختي الصغيرة صاحبة الثلاثة عشر عامًا، بالأمس ونحن نأكل وجبة ساخنة بعد جوع طويل قلتُ لـ عهد:

- كُلي جيدًا فلا نعرف متى ستكون وجبتنا القادمة.

قالت لي بعد أن عانقتني: أشعر أنها ستكون في الجنة مع ماما وياسـين أخي.. لو رحـلتُ إياكِ أن تبكي عليَّ فقط أخبري الناس إنني كنت هُنا وحلمتُ بالحياة وأن أكون طبيبة ذات يوم.

- سامحيني يا عهد.. كيف لي ألَّا أبكي رحيل أختي الوحيدة يا حبيبتي؟! .. يـا عـــــالـــم عهد أختي كانت هُنا وحلمت بالحياة وأن تكون طبيبة ذات يوم.

- رَغَد.

(16)

"عُمر" ابن عمي الحافظ للقرآن العامل به، البالغ من العمر واحد وثلاثين عامًا.. المُهندس الذي لم يُحادث فتاة أبدًا منذ سنوات بعيدة والشاب الذي كنتُ أدعو الله أن يزوجني منه مذ أن عرفت معنى كلمة زواج.

في بداية الأحـــداث أرسل لي رسالة - رغم أنه لا يحادثني مطلقًا منذ سبع سنين - نصها..

"يؤذيني سماع صراخكِ كلما علت أصوات القـصـف، اصبري واحتسبي واستعدي لإتمام خطبتنا فور إنهاء الحـرب"

يومُها أذكر أنني ختمت القرآن كله في ليلة واحدة تقربًا إلى الله حتى يُنهي هذه الحـرب فأتزوج منه.

اليوم مات عمر، طلبت منهم أن أقبل جبهته للمرة الأولى والأخيرة، عندما اقتربتُ منه لم أجد عمر ولم أجد جبهة، كومة من اللـــحم يدعي أهلي أنها جـــســـد عمر!

- آلاء.

(17)

في طفولتي كانت ماما كثيرة البكاء بلا سببٍ يدعو للبكاء أصلًا، تحت إلحاحي المُستمر لمعرفة سبب بكائها الدائم..

أخبرتني أنها في طفولتها رأت أحد الصهاينة وهو يبقر بطن امرأة حامل - في شهرها التاسع - بسِكينه ثم يغرق في الضحك مع زملائه، بينما تجلس ابنة هذه المرأة مصدومة على الأرض الملوثة بالدماء تلملم أشلاء البطن المبقورة والجنين المُقطع دون بكاء أو صريخ.

لم أنسَ أبدًا هذه الحكاية ولم تَكف ماما عن البكاء الدائم دون سبب سوى أنها تذكرت المشهد المؤلم القديم.

منذ أيام في بداية هذه الحرب، أخبرتني ماما أنها كانت ذات الابنة التي لم تبكِ لحظة أن شق الجنود بطن جدتي وعبثوا بـ خالي الجنين، لكنها ظلت تبكيهما طوال العمر بعدما استفاقت من صدمة المشهد الأولى.

منذ أسبوع واحد كنتُ أبحث عن جسد ماما الطيبة تحت الأنقاض، بعد أن وجدته أقسم لكم أنني كنتُ أعيش صدمة المشهد القديم لأنني أيضًا كنتُ ألملم جَسد أخي الجنين وأحشاء ماما.

يا عالم، أغيثونا أوقِفوا هذه المأساة لا أريد لابنتي أن تلملم أحشائي غدًا.. والله على ما أقول شهيد.

- إيمان.

(18)

"مالك" أخي الذي قضى كل حياته يَحلم بمنحة دراسية لاستكمال دراسته في الخارج، اليوم وأنا أتصفح هاتفه وجدت رسالة قضى مالك معظم أيامه في انتظارها "لقد تم قبولك في المنحة المذكورة فسارع باستكمال إجراءات السفر!"

اليوم وأنا أزور قبر مالك لأخبره بأنه قد قُبل أخيرًا، لم أعرف له قبرًا، بعضهم يخبرني أنه دُفن هنا والبعض الآخر يخبرني أنه دُفن في مقبرة اتسعت لعشرين شهيد غيره!

آه يا مالك.. كتبتُ لهم، مالك حَرمه الاحتلال من استكمال دراسته أنقذوا ألف مالك غيره!

- إسراء..

أختك التي تبكيك كل لحظة يا روح أختك.

(19)

عمتي "هدى" جارتنا تسألني قلقةً للمرة العاشرة عن طفلها الوحيد "آسر" لماذا لم يَعد حتى هذه اللحظة؟

رغم أنها قد كفـنته بيدها أول أمس!

أخبرها أنه ذهب إلى الجنة فتقول راضية:

– في سبيل الله يما، ثم بعد دقائق تستحلفني أن أستذكر له دروسه مجانًا لأنه يحلم أن يصير طبيبًا وأن أربيه مع إخوتي الصغار إن رحـلت هي قبل عودته!

أطمئنها كاذبة أنني سأفعل، فتمنحني نقودًا قليلة توصيني أن أشتري بها مصحفًا كاملًا لـ "آسر" غير مصحف ربع ياسين لأنه أنهى ربع القرآن منذ أيام!

– نور.

(20)

يقول أحد الإخوة الذين فقدوا أطفالهم:

مما زاد حزني على رحيل طفلي أنه مـات أمام عيني وهو يركض هاربًا من القذائف وإذا بالصاروخ يهبط إلى المنطقة التي ركض تجاهها.

فحلمتُ بطفلي في ذات الليلة يأتيني في نومي حسن المظهر طيب الرائحة وكأنه لم يعاني جوعًا أو عطشًا أبدًا، فسألته حبيبي حسيت بإيه لما الصـاروخ نزل عليك؟

فأجابني لا تحزن لأجلي يا بابا والله كنت أركض خائفًا على الأرض المُدمرة لكن فجأة وجدتني أكمل ركضي سعيدًا في الجنة الجميلة الخضراء وسط الملائكة وصغار طيبين مثلي وشهداء صالحين ذاهبين معي إلى الله!

حينها تذكرت قول حبيبي مُحمد صلى الله عليه وسلم "ما يجد الشهيد من مس القـتل إلَّا كما يجد أحدكم من مس القرصة".

- مجهول.

(21)

طفلة في المستـشفى أسألها ماذا تضعين في حقيبة ظهرك يا رؤى؟

فتخرج لي منها زجاجة عطر تخبرني أنه عطر ماما، ومصحف كانت تقرأ فيه قبل القـصف.

أسألها أين ماما؟ فتخبرني أنها عند بابا.

أسألها أين ماما وبابا يا رؤى؟

فتقول لي ماما وبابا وتيتة وعثمان أخي كلهم عند ربنا، هو ربنا زعلان مني عشان مأخدنيش معاهم؟!

- يُمنى.

(22)

اليوم وأنا أجهز حقيبتي استعدادًا لمغادرة البيت.

حسب أوامر الاحتـلال، أخذت أشيائي الهامة والتي كان على رأسها وصية حذيفة أخي الراحل شهيدًا منذ أيام وقد كتب فيها "مهما حدث إياكم أن تغادروا البيت"!

خديجة.

(23)

منذ أسبوع وقفت في الشارع إلى جانب "يزن" خطيبي ننظر إلى شقتنا التي تهدّم نصفها وتصدّع النصف الآخر، أسأله من كان يصدق أن هذه الشقة المهدمة كان من المفترض أن نتزوج فيها قبل نهاية العام فقال لي جملته المُعتادة "هذه الدنيا ليست دارنا ولا ديارنا وعسانا في الجنة نَأنس ويُؤنس بنا".

"يَزن" يأنسُ في الجنة الآن.. يا رب يا رحيم ألحقني سريعًا به فلا تؤنسه أنثى غيري!

- ملاك.

(24)

أخبرتهم وأنا أمنحهم قطع الشوكولاتة بمناسبة العام الدراسي الجديد..

أنا أستاذة "سجى" معلمة اللغة الإنجليزية لهذا العام ومعنى اسمي الهدوء والسكون، ليخبرني كل واحد فيكم عن اسمه وعن معناه.

فأخبرني أنَّ اسمه "يحيى"، لفظ مُشتق من الحياة لـيطيل الله عمره ويحيا فيها طويلًا، فتى جميل اختصه الله بالذكاء والفطنة والقبول فمنحته ذات يوم خاتم كُتب عليه يحيى باللغة الإنجليزية بعد علمي أنه يتيم الأم.

منذ أسبوع ونحن بأروقة المشـفى سمعتهم ينادون "هلموا للتعرفِ على المجهولين"، لم أذهب كالعادة إلَّا أنني بعد دقائق سمعتهم يتحدثون عن فتى تشـوه وجهه لكنه يلبس خاتمًا كُتب عليه يحيى.

دق قلبي في عنف وبخطوات متعثرة ذهبتُ إلى الفتى المجهول هناك وأنا أبتهل إلى الله ألَّا يكون هو، وكان أول ما رأيته خاتمي الذي منحته لطفل وضع الله له المحبة في قلبي فعاملته وكأنني أمه لعام كامل، قبلتُ شعره البني وتذكرت صوتًا بريئًا أخبرني ذات صباح أن اسمه يحيى.. اسم مُشتق من الحياة ليحيا فيها طويلًا ولـيمن الله عليه بطول العمر!

- سجى..

راوية قصة يحيى الذي لن يكون مجرد قصة أو رقم.

(25)

- يا رب لا أريد لـماما أن تمـوت أبدًا.

- يا رب ينجح بابا هو ورفاقه في إنقاذ كل الضـحايا تحت الأنقـاض.

- يا رب أتمنى ألَّا ينـهـدم بيتنا أبدًا.

- يا رب احفظ أستاذ إياد معلم الرسم لأنه يشجعني دائمًا وأنا أحبه.

- يا رب تعيش عمتو هاجر وينجو جنينها بعد القـصف الذي استهـدف بيتهم.

- يا رب احفظ جدو وتيتة وعمو أحمد البقال لأنه يهديني حلوى كثيرة من بقالته.

- يا رب احفظني أنا وأختي سارة.

أمنيات كثيرة كتبها "سُهيل" أخي في ورقة ما وراح يرسلها إلى الله عقب كل صلاة بقراءته لهذه الأمنيات مستشعرًا أن الله يسمعها منه.

بعد أن استـشهدت ماما أخبرتُه أن الله يسمع رسائله كلها، لكنه يحبُ أن يختبر صبرك يا سُهيل، فاحذر ألَّا تنجح في الاختبار.. فراح يتلوها عقب كل صلاة بهذه الطريقة الجميلة..

- يا رب رحـلت ماما شـهيدة وأنا صابر.

- يا رب اختفى بابا مع بعض رفاقه منذ أسبوعين وأنا صابر.

- يا رب قُـصف بيتنا وأنا الآن في الشارع لكنني صابر.

- يا رب قُــصف بيت جدو وتيتة منذ يومين ولم نمتلك معدات لنخرجهم من تحت الركـام لكنني أيضًا صابر.

- يا رب رحل أستاذ إياد برصـاصة اخترقت عنقه من الخلف.. وأنا والله صابر.. ورحل عمو البقال مع أبنائه الأربعة وعمتو هاجر وجنينها وأنا كما تعرف صابر.

بالأمس بعد أن استخرجوا جــسد "سُهيل" من تحت أنقـاض البيت الذي انتقلنا للعيش فيه، أخرجتُ ورقة رسائله من جيبه الأيمن وكتبتُ فيها يا رب رحل "سُهيل" آخر من تبقى معي من العائلة وأنا كما تعرفني أيضًا صابرة على كل شيء اختبرتني به لكن لا طاقة لي بالصبر على رحيل "سُهيل".. يا رب ألحقني به وأذن لهذه الورقة العزيزة أن تُدفن معي، سامحني سُهيل كنتَ ترغب بالحياة حبيبي فرحلت أنت وبقيت أنا.

- سارة.

(26)

سألته وأنا في طريقي إلى المخبز

– حبيبي ما هذه الصورة المُعلقة في عُنقك؟

فأجابني بأنها صورة "رَهف" أخته التي فقدها منذ شهر بعد أن قُصف عليهم المنزل فرحلت عائلته كلها باستثناء رهف التي تبرعت سيدة غريبة لرعايتها وهو غائب عن الوعي فلم يعرفها.

دعوتُ الله أن يجمع بينهما وأكملتُ طريقي، في طريق عودتي لمحتهُ وهو يسأل كل المتواجدين عن رضيعة نجت من القصف فتبرعت سيدة ما لرعايتها، في اليوم التالي رأيته وقد كتب حكايتها على ورقة لصقها بظهره، في اليوم الذي يليه وفي كل يومٍ بعده.

مائة ألف تصورٍ داهم عقليِ، تُرى هل سيعثر على أخته الرضيعة يومًا ما، ربما بعد أعوام طويلة يصبح أستاذًا في الجامعة ولا يعرف أن الفتاة الجالسة هناك هي أخته التي بحث باكيًا عنها ذات يوم، ربما أصبح طبيبًا مشهورًا فتذهب إلى عيادته ذات يوم فيعالجها دون أن يعرف كل منهما الآخر، عشرات التخيلات المبكية وعشرات الدعوات لله بأن يجمع الشتيتين فلا يفرقهما شيء أبدًا.

منذ يومين رأيته يجلس باكيًا في الشارع يخرج أكياس اللبن وبعض الحفاضات من حقيبة ظهره، سألته لِمَ تبكي فأخبرني أن البعض أخبروه بوفاة "رهف!"

اليوم وأنا متجهة إلى الجـــنوب يكاد يقـتلني البكاء على فراق منزلي أقبلُ مفتاح شقتي وأقول يا رب أعدني إليها، رأيتُ حشدًا من الناس توسطهم طفل صغير أعرفه جيدًا يهتف فرِحًا بأعلى صوته يا ناس يا عالم هذه رهف.. رهف لم تمـــت يا ماما، شكرًا يا رب لأنك أعدت لي رهف.. رهوفة أنا أحمد أخوك الوحيد.. رهوفة عايشة يا عالم!

- هاجر.

(27)

- ما ضل عندي مكان أعيش فيه ولا عيلة.. ساعة القــصف، صـرخت يما مـاتوا إخوتي الأربعة لقيت أمي هي كمان مـاتت، كل يوم وأنا قاعدة في الخيام هون بفتكر عبود أخويا بقول كان زماني قاعدة بلعب معه!

- مجهول.

(28)

بالأمس وأنا أعبث بمقتنياتي الشخصية وجدتُ أوراق سفر خاصة بـ ماما كانت تسعى جاهدة لإنجازها هذا العام لأنها ترغب في الذهاب إلى "مكة" لأداء مناسك الحج والعمرة.

- ماما حبيبتي لقد اصطفاك الله للشـهـادة بدلًا من الحج، ويومًا ما سأذهب أنا إلى بيت الله وأتوجه إلى كعبته هاتفةً يا رب هذه العمرة نيابة عن ماما الطيبة التي قضت كل حياتها تحلم بالمجيء إليك فلا تحرمها أجرها.. يا رب يا جميل استودعتك روح ماما وحمود أخي وعمتو حنان.

- ريم.

(29)

"حسن" ابن أختي أشقر الشعر أخضر العينين يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا ويحلم أن يكون طيارًا ذات يوم، في بداية الحـرب كلما هاتفتُ أختي للاطمئنان عليها يرد عليَّ حسن ملقيًا بعض النكات لإضحاكي أنا وأمه ولتهوين وقع الأحـداث علينا.

في قـصفٍ عنـيف استـهدف منزلها فرحـلت على إثره معظم العائلة كنتُ أهاتفها كل لحظة اسألها أكلتِ اليوم فتخبرني أن حسن أتاها بطـعام، عطـشانة؟ فتجيب بأن حسن الجميل أتاها بالماء، تشعرين بالبرد فتخبرني أن حسن جاءها صباحًا بدثارٍ ثقيل.

اليوم وأنا أجلس في المشـفى التي نزحـتُ إليها أهاتف أختي كعادتي فتخبرني أن الله أكرم حسن كرمًا بالغًا ليلة أمس فعاد لها بطعام وماء يكفيها لأسبوع كامل، وبينما نحن نتحدث رأيتهم يحملون شـهيدًا تندفع الدماء بغزارة منه، أخبرت أختي باكية كان الله في عون أهله الولد جـسده مشـقوق إلى نصفين ووجهه مُغطى تمامًا بالرمـاد، وأهله ليسوا هنا ليتعرفوا عليه!

بعد لحظات سقطت من الجـسد محفظة نقود أعرفها جيدًا إنها محفظة حسن.. ألقيت بهاتفي وركضت صارخة حيث الجسـد الذي كنت أدعو الله أن يصبِّر أهله منذ ثوان!

صبرنا يا رب، إنه حسن حبيبي قائل النكات لكن رحيله هذه المرة ليس نكتة، حسن حقق أخيرًا حلمه وطار إلى السماء إلى حيث لا يوجد عودة أبدًا!

حسن ليس رقمًا، حسن البار الجميل كان هنا ويعني لنا كل شيء.

- إيمان.

(30)

ضياء ابن عمتي، مريض كِلى، كان يغسل في مستشفى الإندونيسي ثلاث مرّات أسبوعيًّا..

وبسبب عدوان الاحتلال، لم يستطع ضياء الوصول للمستشفى، إلى أن تورّمت قدماه وانسدّ الوريد، وأصبح قعيدًا.

ضياء تُوفّي منذ دقائق، بعد إصابته بنزيفٍ في الدماغ جرّاء تفاقم وضعه الصحي.

إسرائيل تقتل المرضى بحرمانهم من تلقّي العلاج، وباستهدافها المستمر للمنظومة الصحية.

ضياء ابن عمتي شهيد.

– أحمد بسيوني.

(31)

منذ لحظات أرسل لي هاتفي تذكيرًا جاء فيه "غدًا عيد ميلاد عصوم لا تنسي تجهيز كيك الموز التي يحبها واقتناء الزينة التي أوصاك عليها منذ عيد ميلاده السابق".

رسالة تذكيرية تصلني كل عام فأفرح لها ويتمايل فرحًا كل من بالبيت.. لكنها عندما وصلتني هذا العام بكيتُ بكاء مُرًا.. عصوم لم يعد هنا، عصوم رحل شهيدًا منذ أسبوعين وكان آخر ما أخبرني به أنه خائف من صوت القصف فطلبت منه ألَّا يخشى شيئًا أبدًا لكنه مع ذلك مات خائفًا.. عصوم لم يقتله مدفع أو قصف أو رصاصة عصوم فقط تسلط عليه الخوف.

سلمى.

(32)

منذ بداية القـصـف أوصيتُ أطفالي الثلاثة أن يلجؤوا "لأم محمود" إذا أصابني مكروه.

– اليوم حفرت مع أم محمود تحت الأنقاض لاستخراج جثامين أطفالي الثلاثة بعد ما تَهدمت عليهم جدران البيت.

رقية.

(33)

أنا الشهيدة وفاء محمود أبو الروس بحب الحياة، وبحب عيلتي كثير، وبحب مساعدة الناس وما بحب أخيب حدا أو أكسر بخاطره، ما بعرف أقول لا، كانوا بنادوني الفراشة لأني مفعمة بالحيوية والنشاط وبتنقل من مكان لمكان مثل الفراشة ما بتتنقل من زهرة لزهرة ومن بستان لبستان.

بحب الخياطة والأشغال اليدوية.

أنا من الناس الرايقة اللي بتضحك على طول أختي مرة كتبتلي في هدية عيد ميلادي

"نيال البيت اللي فيه وفاء" لأني بخلق أجواء حلوة وبحول الحزن لفرح، وبصنع الإيجابية في كل مكان بكون فيه.

أنا مش رقم، أنا قمر إذا استشهدت اكتبوا استشهاد فتاة جميلة عمرها سبعة وثلاثين عامًا وهي بتضحك.

اكتبوا، الاحتلال قتلني وقتل كثير من الضحك معي.

- نجية محمود أبو الروس..

أخت الشهيدة وفاء محمود أبو الروس.

(34)

في عام 2001 كان هذا الطفل يهرب يوميًّا من المدرسة ويذهب للاشتباك مع الصهاينة حتى أيست منه إدارة المدرسة فأرسلت إلى ولي أمره، وكانت والدته التي وبخته وطلبت منه أن يحافظ على روحه من أجلها وأن يلتفت أكثر لدروسه حتى يكون مهندسًا.

لكن الفتى لم يقتنع ولم يكف عن الاشتباك مع الكلاب بل كان يقف أمام دباباتهم بكل جرأة وهو يغني "لو كسروا عظامي مش زاحف لو هدوا البيت مش خايف".

استشهد ابن خالته وصديقه "شادي" في إحدى اشتباكاتهما سويًّا ذات صباح، فخشيت أمه عليه وحبسته في البيت لأنه أقسم في جنازة شادي بأنه سيثأر له يومًا ما وعسى أن يكون قريبًا، وبالفعل هرب من محبسه وأعادته والدته إلى بيته أكثر من خمسين مرة على مدار أسبوعين فقط.

وذات يوم حلم الولد بصديقه ورفيق دربه "شادي" يسأله مُعاتبًا لماذا تأخرت في الانتقام لي يا فارس؟!"

وفي نفس الليلة حلمت والدته بشادي يقول لها "فارس يريد المجيء إليَّ في الجنة، لماذا تمنعينه يا خالتي"؟

وعرفت الأم أنها رسالة من الله وأن ابنها مشروع شهيد.

هذه الصورة التي أرسلتها لكِ سارة منذ دقائق، صورها له مصور فرنسي

اسمه "لورو" وهو يشتبك مع دبابة ميركفا فانتشرت انتشارًا هائلًا وباتت الغلاف الرسمي لكثير من مجلات العالم وبعدها بعشرة أيام، وبالتحديد في تاريخ 8/ 11/ 2001

انحنى البطل ليلتقط حجرًا من الأرض، فلم يرفع رأسه أبدًا لأن رصاصة من نوع 500 اخترقت رقبته فخرجت من الجهة المقابلة وانتهت قصته في لحظة!

هذا الطفل الذي تحدى الدبابة بحجر، هو ابن السيدة "أنغام عودة" التي ظلت لـسِت سنوات بعد استشهاده تأخذ حقيبته وتذهب إلى المدرسة تسأل زملاءه عنه وتسألهم لماذا لم يعد يحضر دروسه معهم؟

هذا الطفل كان من المفترض أن يكون عمره الآن أربعة وثلاثين عامًا، لو لم ينهِ الاحتـلال حياته كان من الممكن أن يكون مهندسًا كما كانت تحلم والدته أو طبيبًا كما كان يحلم هو، كان من الممكن أن يكون متزوجًا ولديه زوجة وأطفال وبيت وعائلة، وبالتأكيد سيكون قطبًا هامًا من أقطاب معركة طوفان الأقصى.

هذا الطفل غنى بكل ثبات وصمـود:

لو سموا المية ما يخالف، لو هدوا البيت مش خايف، لو كسروا عظامي ماني زاحف رح ألِم عظامي يا بلدي وأصنع مقلاع وحجر ..!

هذا الطفل هو الشهيد الاسطورة "فارس عودة"، صديق طفلي الصغير ذات يوم، وصاحبه بمقعد الدراسة منذ سنوات بعيدة.. اكتبوا عن فارس

الشجاع لا تبخسوه حقه ولا تنسيكم كثرة الشهداء الآن أن لنا شهداء رحلوا منذ زمن ولم يعد يذكرهم أو يترحم عليهم أحد.

- مجهول.

(35)

منذ دقائق وأنا جالسة بسيارة الإسعاف يأتي طفلٌ غــزّاوي، عمرهُ عشر سنَوات، يجلسُ في السيَّارة يحملُ على ظهرهِ حقيبَة مدرسيَّة.

يسألهُ المُسعِف:

شو بتعمل يا عمُّو؟ ليش لابِس شنطة المدرسة بالإسعَاف؟

يردُّ الطِّفل ويقُول:

لا مهُو أنا حاطِط فيها أشـلاء أخوي الصِّغير.

- رهام.

- عمار أخي الذي يحلم أن يصبح لاعب كرة بـتـر القصف قدمه منذ ثلاثة أسابيع، اليوم رأيته يوزع الحلوى على الصغار لأن الله نجاه من القصف رغم أن قدميه العزيزة لم تنجُ منه.

- أم مالك جارتنا التي رحل مالك طفلها في بداية الأحداث ترعى رضيع فقدَ عائلته كاملة منذ يومين.. بالأمس أخبرتنا أنها أطلقت عليه اسم "مالك" لأن الله أرسله تعويضًا لها عن "مالك" الحقيقي.

- بيتنا الذي تم تدميره تمامًا زرته بالأمس أبكي كل ركن فيه وأحتضن أنقاضه وكأنها جزء مني وأسألُ نفسي تُرى هل سيصبح لي بيتًا يومًا ما؟!

بعد ثوان وجدت لوحة غرفة المعيشة التي أعرفها جيدًا مكتوب عليها ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20]..!

- أم محمود التي أصيب محمود ابنها في المشفى منذ أيام فرحل على إثر الإصابة، رأيتها وهي توزع ملابسه الثقيلة على الأطفال بعد أن هطل المطر منذ دقائق.

- أخي" سهيل" الذي كتبتُ لكِ قصته منذ أيام وأنني كنت أحتمل رحيل الجميع إلَّا رحيل سهيل.. حلمتُ به ليلة أمس يخبرني أنه سعيد في الجنة الآن وأنه لو لم يكن شهيدًا، لكتب في ورقة أمنياته يا رب عَجِل لي بالشهادة!

- الطفل الذي يعمل مع فرق الإنقاذ غير عابئ بجهد أو تعب، والأم التي ترعى صغارًا لا تعرفهم رغم أنَّ صغارها رحلوا.. والوالد الذي رحل كل أبنائه فجلس يحمد الله أنه اصطفاهم للشهادة، والشاب الذي يوزع الطعام على من يحتاجه رغم أنه أحوج الناس إليه.. والسيدة التي تؤثر على نفسها فتمنح الماء لأناس لا تعرفهم رغم أنَّ العطش قد استبد بها.. والبنت التي رحل خطيبها فصبرت حتى يكتبها الله من الصابرين.

كل هؤلاء علمونا أنَّ أشباه" خالد" و"عمر" ما زالوا بيننا الآن، وأن الخنساء وإن ماتت فبيننا ألف خنساء أخرى، تعلمتُ من أطفال غزة كيف يكون الصبر على البلاء ومن بناتها كيف تتمسك المرأة بحجابها حتى في أحلك الأوقات، ومن شبابها أنَّ أمتنا لا زالت بخير.

- كل هؤلاء لن تربكهم معـركة مع جـيش تافه، أو يزعزع إيمانهم طول البـلاء لأن الله حكمة في ذلك، وأننا مهما ظننا بأننا فقدنا البوصلة ونسينا القـضية اكتشفنا بأن هذه هي القضية الوحيدة التي لا تُنسى وأن فلسطين هي وطـن كل عربيّ شريف حتى لو كان فعلًا ينتمي إلى وطـن آخر.

خاتمة

الصبر على البلاء

من أصعب الاختبارات التي يمر بها المرء في حياته، اختبار للصبر، لليقين وللإيمان.

ابتلاء في الصحة فتتحول إلى مرض فيعجز المرء عن قضاء حاجاته بنفسه وقد لا يجد من يقضيها له رغم سعيه طوال حياته في قضاء حاجات الناس، أو ابتلاء بفقد عزيز يعجز القلب القوي عن المسير من دونه، ابتلاء في عدم إجابة دعاء ما رغم إلحاح الداعي به، أو ابتلاء في تأخير زواج أو نجاح أو إنجاب، ابتلاء بتأخير رغبة ما بتوقيت الناس، على موعدها بتوقيت رب الناس.

– هناك في مشهد مهيب وفي ظرف صعب يوحي الله عز وجل إلى سيدنا إبراهيم أن يذبح ولده، تخيل أن يتلقى الأب أمرًا إلهيًّا بذبح ابنه الذي رزقه الله به على كبر وبعد طول صبر وتمنٍ، تخيل أنه بدلًا من أن يفكر في كيفية تزويج ابنه جلس ليفكر في كيفية ذبحه!

اليوم جاء الأب إلى مكة لم يحمل معه هدية لابنه كالعادة، بل حمل معه سكينًا حادًا ليذبحه بها، تخيل أن الرجل الرحيم الذي طلب من الله عز وجل أن يجعل ابناءه مقيمين للصلاة ولم ينسَ ذريته فقال ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 40]، الرجل بلغت رحمته ذريته التي

لم يرها ولم تأتِ هذه الذرية إلى الدنيا أصلًا لكنه مع ذلك كان رحيمًا بها فما بالك برحمته بابنه، كيف يخبر ابنه بهذا الأمر، وماذا سيكون موقف الابن نفسه؟

"إسماعيل" هو الابن البكر والوحيد -وقتها- لسيدنا إبراهيم، كان فتى جميلًا صبورًا حليمًا، وكان أول فارس يستأنس الخيل في تاريخ البشرية، ويقال أنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة، وكان صادق الوعد ويأمر أهله بالصلاة والزكاة ولطالما نادى مع أبيه بعبادة الله ووحدانيته، هو من قام ببناء الكعبة مع إبراهيم، تخيل بعد هذه العلاقة القوية والوطيدة التي تربطهما ببعضهما يؤمر الوالد بذبحِ ولده الفارس الصبور أحكم فتيان جيله وأجملهم.

- كانت حياة سيدنا إبراهيم سلسلة من الاختبارات العصيبة، منذ أن ألقاه قومه في النار، وخذله والده فلم يحميه من قومه بل تآمر معهم على ابنه إبراهيم فهدده بالرجم أولاً ثم حمله معهم إلى نار أوقدها بنفسه ليُلقي ابنه فيها!

- ثم الاختبار الثاني، بأن جاء أمر الله لإبراهيم بأن يترك زوجته وصغيره في مكان مقفر موحش لا زرع فيه ولا ماء ولا بشر، وعندما امتثل إبراهيم لأمر الله سألته زوجته في جزع:

آلله أمرك بهذا؟ فقال نعم.

فسكن خوفها ورددت إذن لن يضيعنا الله.

لكن إبراهيم غَلبَ خوفه صبره فدعا ربه قائلًا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن

ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37] فأصابت دعوة إبراهيم قلب كل مسلم على وجه الأرض.

- تخيل أن "هاجر" ظلت تركض بين جبلين سبعة مرات لأن الماء الذي معها قد نَفِد، تخيل امرأة وحيدة تركض بلا هدف في صحراء مقفرة تاركة ابنها الرضيع يصرخ خلفها لشدة عطشه لكن رحمة الله قريب من المحسنين.. فانفجرت لهما بئر زمزم لا لتروي الصغير وحده وإنما لتروي كل حجيج البيت حتى هذه اللحظة ممن أصابهم دعاء أبيه.

كبر إسماعيل وتعلق به قلب والده، هو بكره وابنه الوحيد والذي شهد معه المواقف كلها، أيذبحه بيده بعد أن صار شيخًا طاعنًا يتكئ عليه؟ أيذبحه بيده وهو أرحم قلب على وجه الأرض حينها..؟!

لم يسأل إبراهيم ربه لِمَ يأمره بذبح وليده ولا ما الحكمة من أن يختبره الله هذا الاختبار القاسي الذي سماه الله في كتابه بالبلاء المبين.

أيخبر الوالد ولده بأمر ذبحه! أم يأخذه قهرًا ويذبحه غدرًا؟ هل تصورت ألَّا يكون بينك وبين وليدك سوى سكينة ذبح وألَّا يتبقى لك منه سوى دماء دافئة تتناثر في وجهك وجسدك بعد ما تذبحه بيديك؟ هل استشعرت معي عظم البلاء حتى هان في عينيك كل بلاء بعده وهل أدركت معي جميل صبره فكأننا لم نصبر على بلاء أبدًا.

وللمرة الثانية يتحقق الرجم في قصة إبراهيم لكن شتان بين رجم وآخر،

في المرة الأولى كان أباه من يرجمه وفي المرة الثانية ها هو إبراهيم يلتقط جمرات من الأرض ليرجم بها إبليس الذي يقف باكيًا في أقصى المشهد ليقنع إبراهيم بأن ذبح وليده أمر فوق تصور إبليس نفسه!

للمرة الألف يقف إبراهيم أمام الابتلاء وحيدًا، لكنه في وحدته يعادل أمة، في النهاية يخبر ولده بأمر ذبحه ثم يترك الأمر له قائلًا انظر ماذا ترى، وها هو الابن الذى تربى على يد من قالت لن يضيعنا الله أبدًا، يقول بصبر وثبات يا أبت افعل ما تؤمر!

لو كان الأمر أكثر من الذبح افعله ولا تتردد ستجدني إن شاء الله من الصابرين، تخيل أن يجلس الأب مهمومًا ومتعبًا ليخبر ولده بأمر ذبحه، فما كان من هذا الابن إلَّا هدأ من رَوعِ أبيه متذرعًا بالصبر في موقف يستحيل الصبر فيه.

يقول أحد السلف أن إبراهيم عندما خرج إلى الصحراء ممسكًا بالسكين في يده وولده باليد الأخرى ليذبحه وقفت الطيور والجبال في الأرض والسحاب في السماء والمياه في المحيطات، تتضرع إلى الله ليمنع إبراهيم من ذبح ولده، داعية الله عز وجل ألَّا تنتهي قصة الابن وأبيه بهذه النهاية المؤسفة، تخيل أن الكون كله بجماداته وطيوره رقَ لأمر الذبح فما بالك بالذابح والذبيح!

– يا أبتِ عندما تبدأ في ذبحي احكم قيدي حتى لا أتفلت منك، وشد وثاقي، وحد شفرتك، وألقني على وجهي حتى لا تنظر في عيني فتأخذك

الشفقة بي ويعز عليك ذبحي فتتراجع عن أمر الله، يا أبتِ خذ قميصي لأمي لا أملكُ غيره، صبرها به.

يصف الله سبحانه وتعالى لحظة ذبح إسماعيل، كان الفتى راقدًا على الأرض ووجهه لها رحمة به فلا يرى نفسه وهو يُذبح، وإذا بإبراهيم يرفع يده بالسكين...

"فلمَّا أسلمَا".. استخدم القرآن هذا اللفظ ليؤكد تمام التسليم لأمر الله، تهيأ الابن للذبح وتهيأ الوالد لذبح ولده دون أن يعلم أي منهما أن هناك كبشًا يُربى في الجنة منذ خمسمائة عام لهذه اللحظة!

وفي اللحظة التي رُفع فيها السكين لإمضاء أمره نادي المنادي جل جلاله ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: 104 - 105].

فهتف "جبريل" فَرحًا في السماء.. "الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله".. فرد عليه إبراهيم مطمئنًا أخيرًا بعد هذا الاختبار العصيب "الله أكبر الله أكبر ولله الحمد".

ومنذ هذه اللحظة وصار هذا اليوم عيدًا لقوم لم يولدوا بعد ليذكِّرهم الله أن في هذا التوقيت جلس شيخ أواهٌ حليم رحيم وقور ليذبح ولده وصديقه الوحيد!

إنه نعم الفتى، قمة الاستسلام والتسليم لله رب العالمين لذلك كان الجزاء وفديناه بذبح عظيم.

وكانت عظمة الذبح ليس في أنها أصبحت شعيرة للمسلمين من بعده ولكن في كلمة "وناديناه" جل جلال المُنادي، وسلامٌ على ابراهيم الذى وفَّى، وإسماعيل الذي أسلم واستسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ..

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: 99 - 111].

الحياة قاسية بما يكفي، والظروف تطحن الصغير فينا قبل الكبير، وتضيق بالطيبين أكثر من ضيقها بغيرهم، فإن لم تستطع أن تواجه قسوة الحياة وحدك فادفع سعيرها عنك بتعلقك إلى مولاك.

اذهب إلى المساجد طيبًا ثم ردد ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: 31].. وأَحسن إلى من عرفت ومن لم تعرف ثم ردد دائمًا ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26].

رتل القرآن بقلبٍ خاشع ثم قل يا رب قد "أخذتُ الكِتابَ بِقوَة"..

واكظم غيظك كلما استبد الغيظ بك ثم ردد هادئًا ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

مَلِكهُ زمام أمرك ثم اتلو ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1].. واشكو إليه ما بك من ضُر ثم ردد ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83] وعود نفسك على الصبر ثم ردد دائمًا ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: 126].

تَعَلَّم الصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل، ثم قاوم قسوتها عليك بحسنِ ظنك به، ووحشتك فيها بِأُنسِكَ له، وانقطاعها عنك بصلتك به وتوكلك عليه.

اشكره لأنه يُحب الشاكرين واطلب رحمته لأنه غفور رحيم، ثم اسأله من كل خيرات الدنيا وردد دائمًا ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

صلِ لأن الصلاة هي الأمان الوحيد في خضم البحر الهائج الذي نغرق كلنا فيه، وردد..

أُحِبُك يا رب ولستُ الفقيهَ بأفعال المحبين،

لم أكن في حياتي صِدّيقًا كيوسف ولا مُحسنًا كمُحمد ولا ذاكرًا لك كذكر يونس في بطن الحوت، لم أختم القرآن في ركعة واحدة كما فعل عثمان، ولم تُقطع أطرافي في حرب كجعفر، ولم أهاجر إليك كما هاجر الآلاف في سبيلك.

لم أذكر يومًا أنني أنقذت عبدًا من النار ودفعت آخرًا إلى الجنة، ولم أقم

الليل بطوله خوفًا من عذابك ولا أصوم صيام داوود طمعًا في جنتك..

ولم أوؤذَ في سبيلك كما أوذي بلال ولم أصبر كما صبر على البلاء أيوب، لكنني أدعوك.

أدعوك؛ لأنك تعرف صدق توجهي إليك حتى لو سلكتُ الطريقَ الخاطئ، وقدر حبي لك حتى عندما حرمتني مما طلبته مرارًا منك، وتعلقي الصادق بك لأنني أثق برحمتك بي وحنانك عليّ.

يا رب عَلِّمني ألَّا أيأس، أخشىٰ أن أنكسر في نهاية المطاف وأنا الذي يدعوك أن تجبره منذ بداية الرحلة، وأخاف أن ينتهي العمر دون أن أحَصِّل ما بذلت روحي في سبيله، أفزعُ أن تعاملني بعملي فتسحقني وأن ترد إليَّ أفعالي فتضيِّق أنفاسي عليّ وأن تخرجني من رحمتك فأخسر الدنيا والآخرة.

يا رب آتيك بخطواتٍ عرجىٰ وتيه يصاحبني في الطريق ووِحشَة تلفني من كل جانب لكنني أحمل على يدي قلبًا يحبك وفي اليدِ الأخرى حسن الظن بك وصدق توكلي عليك، وأمنِّي نفسي دائمًا بأنك في الغيب تجهز لي مُعجزة لأنني عبدك الضعيف الذي يعجز أن يسير حياته دون معجزة منك.. وتهيئ لي قدرًا آمنًا لأنك تدرك في حياتي كم تعبت ولن تضيع تعبي عبثًا.

يا رب عندما يواسيني الناس أحدثهم عن ثقتي بك فلا تخذلني أمامهم، وعندما يحتلني الحزن أدفعه عن نفسي بذكر جزاء الصابرين وعندما يتوعدني الشيطان بالفقر واليأس أمد له لساني لأن أمري بين يد الكريم الرحيم.

يا رب لم آتيك بكثير عمل، لكن لي قلبٌ يُحبك وروح لا تتعلق إلَّا بك

ونفس لا تسعى إلَّا إليك وصبر جميل لأنه يشعرني دائمًا أنك معي، فتولني وكُن دائمًا معي.

-ويومًا ما ستعرف أن اختيار الله لك كان أفضل ألف مرة من اختيارك أنت، وأنَّ منعه عنك ما تُحب كان في حد ذاته عين العطاء.

وأنَّ أحلامك التي حَرمَكَ تحقيقها كان لأنه يدبر لك حلمًا أفضل ألف مرة، وأنه حين أغلق في وجهك بحكمته هذا الباب فتح لك برحمتهِ ألف باب غيره، وأنه أزاحهم من طريقك لأنهم كانوا شرًا فيه، وأنه أحاطك فعلًا بمن يتمنى الخيرَ لك.

يومًا ما ستدرك أن تأخيره كان لحكمة وأن تدبيره لك كان أفضل مائة مرة من تدبيرك لنفسك، وأن الله لطيف رؤوف رحيم.. يرحمنا حتى عندما نعذب أرواحنا، ويلطف بنا حتى عندما نظلم أنفسنا ويهدينا برحمته سُبلَ السلام في حين أننا نسير بجهلنا في سبيل الخطر.

تم بحمد الله.. 25/12/2023

سارة العقاري